

سلسلة مقارنة الأديان

(٢)

من قضايا

القرآن

دراسة وتحليل

تأليف الدكتور

محمد شلبي شتيوي

الأستاذ بجامعة الأزهر

كلية أصول الدين والدعوة بالمنصورة

الطبعة الثانية

٢٠٠٨م / ١٤٢٨هـ

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

رقم الإيداع: ١٩٨٨/٧٤٦٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين محمد بن عبد الله إمام المتقين وسيد الأنبياء والمرسلين .

ويعد ...

فهذه هي الطبعة الثانية من كتاب: القرآن- دراسة وتحليل ، ولما كان قد تقرر من واقع الدراسات العلمية للقرآن أن إنساناً ما لا يستطيع أن يقوم بدراسة وتحليل لكل هذا الكتاب العظيم ، كان معلوماً من العقل بدهاء أن المقصود بالعنوان ، دراسة وتحليل لبعض الآيات والأغراض وأوجه الإعجاز التي تناولها هذا الكتاب الحكيم ، وليس المقصود استقصاء لكل الآيات والأغراض وأوجه الإعجاز ؛ لأن هذا غير مقدور لأي إنسان مهما علت همته ، وأياً ما كانت درجته العلمية ، وقد أشرت إلى هذا إشارة مقتضية تحت عنوان « القرآن نصاً وامتناً » ، وقد وضحت في مقدمة الطبعة الأولى ما يمكن أن يتناوله الكتاب من أبحاث .

وزيادة في الوضوح والإبانة عن القصد أعود في مقدمة الطبعة الثانية للتأكيد على أنني ما أردت بهذا العنوان إلا عرض بعض الصور القرآنية ودراساتها وتحليلها لإظهار ما عليه القرآن الكريم من مكانة عالية ، ودقة وصدق في سننه ونقله ، وصحة وعظمة في نضه وامتته .

ومنعا لهذا الالتباس الذي حدث عند البعض ، فإني أستمع القارئ الكريم في تغيير العنوان من: « القرآن: دراسة وتحليل » « إلى عنوان جديد هو: من قضايا القرآن: دراسة وتحليل » أملاً من المولى عز وجل أن ينفع به المسلمين ، وأن يكون ذخراً لي يوم الدين ، إنه سبحانه سميع مجيب .

دكتور

محمد شلبى إبراهيم شتيوى

جامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة:

القرآن الكريم هو كلام الله الذي أنزله على محمد بن عبد الله خاتم الرسل والأنبياء - عليه أفضل الصلاة والسلام - وقد جمع الله في هذا الكتاب كل ما في الكتب السابقة من حقائق ثابتة ، وأودع فيه الكثير مما ينفع الناس في دنياهم وأخراهم ، فكان سادا مسد ما سبقه من كتب ، سواء أكان هذا في العقيدة أم في الشريعة أم في الآداب والأحكام والأخلاق.. إلخ مما فيه الخير والسعادة للبشرية جمعاء .

والقرآن هو الكتاب الوحيد الذي بقي ويبقى حجة إلى يوم القيامة ، ومع هذا الزمن الطويل الذي مضى والذي سيأتي فإن الله سبحانه وتعالى قد حافظ عليه ومازال محافظا عليه حتى يوم القيامة ، فلا يلحقه تحريف ولا تزيف ؛ لأنه تعالى وعد بحفظه والمحافظة عليه فقال عز وجل: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

والقرآن الكريم معجزة باقية إلى ما شاء الله تعالى ، فيه البلاغة ، وفيه الحقائق العلمية وأخبار الأمم الماضية ، فكان معجزة لمن وعاه وفهمه .

ولكن ما زال هناك من يتناول على هذا الكتاب العظيم فيدعي أن فيه تحريفا وتزييفا للحقائق ، ويزعم هذا البعض أن بالقرآن تناقضا وتضاربا ، وهذه الدعوى - وإن كان جميع المسلمين متفقين على كذبها وافتراءها - تحتاج إلى ملاحظتها ودحضها ، وبيان وجه الحق في هذا الأمر فلعل الله سبحانه وتعالى يهدي هؤلاء الذين أفسدهم سادتهم وكبرأؤهم فيعودون إلى الحق وينهلون من كتاب الله الذي لا ينضب منه الخير أبدا .

من هنا رأيت واجبا على أن أبذل جهدا في سبيل إجلاء الحقيقة وتوضيحها لمن التبس عليهم طريقها ، وضلوا في متاهات الكفر والضلال .

فكثبت هذا البحث هادفا به إلى تحقيق أمرين :

أحدهما: إظهار ما عليه القرآن الكريم من عظمة وعلو وصدق ويقين لم يتيسر

لكتاب آخر قبله

ثانيهما: الرد على الاعتراضات والشبه الموجهة إلى هذا الوحي الإلهي العظيم .

وقد سلكت في هذا طريقين :

الطريق الأول: يقوم على دراسة السند والنقل الذي وصل به القرآن الكريم إلى الناس ؛ لأنه إذا كان السند قويا متواترا ، والنقل آمينا ، نزلت أمامه أى حجة وتضعفت في مواجهته أى دعوى .

ولتقرير هذه الحقيقة لزم إثبات أن القرآن كلام الله ، وأنه ليس من صنع البشر ، وأعطيت الأدلة على هذا .

وإذا كان القرآن هو كلام الله الذى نزل على محمد ﷺ فكيف نزل ؟ وهل نزوله كان على منوال الكتب السابقة أم أنه تميز عنها بميزة جديدة ؟ وما الحكمة فى نزوله على الكيفية التى نزل بها ؟ وماذا وجه إليه من اعتراضات بخصوص نزوله على هذه الكيفية ؟ وما معنى نزوله على سبعة أحرف ؟ وبماذا اعترض على هذا ؟

هذه استفسارات دارت فى القديم فى عقول الناس ، وفى العصر الحاضر يتخذها البعض مطعنا فى القرآن الكريم ؛ لذلك وجب توضيح هذا الأمر ورد كيد الكافرين فى نحوهم .

تم تأتى مرحلة تعلم المسلمين ودورها فى قوة السند وصحة النقل ، فلقد كان تعلم المسلمين للقرآن وحفظه وفهمه من أهم الوسائل والأسس التى جعلت سند القرآن ونقله طريقا مأمون المخاطر صحيح المسالك .

أما كتابة القرآن وجمعه فكانت هى الأخرى من أقوى الوسائل فى المحافظة على القرآن من الضياع أو التحريف والتبديل ، فتحدثت عن كتابة القرآن ومراحل جمعه مبينا ما فى هذا من دلالة على قوة السند والنقل فى القرآن الكريم .

الطريق الثانى: ويقوم هذا على دراسة القرآن فى نصه ومنتته حتى يتبين القارئ هل يجد فى القرآن تناقضا أو تضاربا كما يدعى البعض ؟

فبينت أولا فضيلة القرآن وعظمته فيما جمع من معارف دينية وعسكرية وأخلاقية تسمو بها النفوس ويعلمو بها القرآن الكريم على بقية الكتب الأخرى.

لذلك كان حجة على جميع الناس ملزما لهم فيما جاء به من عقائد وتشريعات وأحكام إلهية.

ولقد تعرضت لبعض الشبهات التي أثرت حول القرآن الكريم فبينت بطلانها وافترائها.

ثم أضفت قضية مهمة وهي قضية اعتراف القرآن بالتوراة والإنجيل ، فإن أهل الكتاب يتخذون من هذا دليلا على صحة كتبهم وبطلان دعوى المسلمين بتحريف هذه الكتب.

وقد بينت الظروف والأمر التي اقتضت القول بالتحريف ، وأن القرآن حين اعترف بهذين الكتابين لا يعنى هذا تبرئتهما من تهمة التحريف وإنما التحريف ما زال لاصقا بهما والاعتراف بالصحة راجع إلى توراة وإنجيل مخصوصين.

ثم عمدت إلى ما استدل به الخصم على عدم وقوع التحريف فى التوراة والإنجيل ، فبينت حقيقة الأمر وأبطلت أدلته فى هذا الموضوع.



تمهيد

إثبات النبوة لمحمد بن عبد الله :

ونحن بصدد الحديث عن القرآن الكريم إثباتا لصحة سنده ومتمنه وبيان أنه الكتاب السماوي الوحيد الذي حافظ الله على صحته من كلتا الناحيتين ، ونحن بصدد هذا فإن الأمر يستوجب التمهيد لذلك بإثبات نبوة محمد ﷺ ؛ لأنه إذا ثبت الرسالة له كان ما يقوله حقا لا شك فيه ؛ لأن الرسل متصفون بالصدق دائما وأبدا وبخاصة في أمور الرسالة التي كلفوا بها.

ويادئ ذي بدء أقول :

إنه ظهر في مكة رجل من رجالها يقول إنه نبي مرسل إليهم وإلى الناس أجمعين ، لقد سأل قومه وهو على جبل الصفا قائلا لهم :

« أرايتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي ؟ قالوا: نعم ما جريتنا عليك كذبا قط ، فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ، يا بني عبد المطلب ، يا بني عبد مناف ، يا بني زهرة - وأخذ ينادي على باقي القبائل - إني لا أملك لكم من الدنيا منفعة ، ولا من الآخرة نصيبا إلا أن تقولوا لا إله إلا الله »^(١)

وهكذا ابتدأت دعوة هذا الرجل ، وبحث قريش في تاريخ هذا الداعية لعلها تجد من الصفات الدنية ، والأخلاق الرديئة ما تصف به صاحب هذه الدعوة لتفسد عليه دعوته ولتمنع بذلك الناس عن اتباعه ، بحث فلم تجد لأنها رأته طفلا من أبناء أعز القبائل العربية وأعلاها نسبا وشرفا ، فخرا وسيادة ، ألا وهي قبيلة قريش ، ورأته غلاما لم يشاركها خمرا ولا ميسرا ولا مسجودا لصنم ، ورأته شابا مشاركا لأهله في حرب الفجار ، مدافعا عن البيت الحرام ، مساندا لقومه في حلف الفضول وهو حلف إنساني يدعو إلى الخير وإلى مكارم الأخلاق ، ورأته رجلا حكيما أمينا ، ظهرت هم حكمته حين اختلفت القبائل العربية حول من يقوم

(١) ابن كثير (أبو الفداء إسماعيل بن كثير) السيرة النبوية (تحقيق مصطفى عبد الواحد - الناشر عيسى الحلبي) ج١ ص ٤٥٦/٤٥٧ ، وأيضا الوفا بأحوال المصطفى لابن الجوزي ١م ، ص ١٨٣/١٨٤ .

بوضع الحجر الأسود في مكانه ، فحكموا أول داخل عليهم ، وإذا بمحمد بن عبد الله هو أول داخل فقالوا: هذا هو الأمين ، فكان مشهورا بينهم بالأمانة.

لقد ادعى محمد بن عبد الله النبوة ، وتاريخ حياته يؤهله لهذه النبوة ، وقرآن أحواله تشهد بأنه رسول بحق ، فلقد ادعى الرسالة وكان قبلها - وما زال بعدها - .. ناضج العقل راشد الرجولة ، وكان مع ذلك صادق الحديث، أمينا إلى أعلى ما تدل عليه هذه الكلمة من سمو وجلال ، أجل : كان أمينا على نفسه فلم يستسلم إلى شر أو رذيلة ، وكان أمينا على الناس فلم يتتهك عرضا ولم يظلم أحدا ولم يفش سرا^(١).

واتبع هذا الداعية كثير من الناس ، واشتهر أمره بين القاصي والداني ، بين الكفار وأهل الكتاب ، وجاء هؤلاء وهؤلاء ، وتحالفوا وتكتلوا لإسقاط هذه الدعوة والقضاء على صاحبها ، ولكنهم لم يستطيعوا لأن محمدا رسول بحق ، والله يؤيد رسله وينصرهم على أعدائهم: ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ ﴾^(٢)

وانتصرت دعوة محمد ﷺ وكانت بينه وبين العرب معارك ، وبينه وبين الروم مناوشات ، وبينه وبين اليهود احتكاكات واشتباكات ، وانتصر محمد على أعدائه ، وانتشرت دعوته ، وثبتت صلاحيتها ، وتحققت بها العدالة بين الناس ، وبها حصل العبيد على حريتهم ، وعاش أهل هذه الدعوة تحت ظلال الإسلام وسعدوا بنعمة الإيمان .

إذن محمد صادق في دعوى الرسالة ؛ لأن الله سبحانه وتعالى لا ينصر الكاذب ولا يؤيده ، فهما كانت مكانة الكاذب ، ومهما كانت همته وحيلته ، ومهما كان فهمه وذكاؤه ، فلا بد في يوم من الأيام يظهر للناس كذبه ويكتشف الجميع تدليسه وخداعه ، وكذلك الصادق ، فهما تأمر عليه المتآمرون ، ومهما كانت العقبات التي وضعها أعداؤه في طريقه فلا بد سيظهر صدقة للجميع ؛ لأن الصادق يهدي

(١) محمد الطيب النجار ، سيرة الرسول في ضوء الكتاب والسنة والدراسات الإسلامية المعاصرة (١٣٩١هـ / ١٩٧١م) ص ٨٣ .

(٢) غافر: ٥١ .

إلى البر ، والكذب يهدى إلى الفجور .. والناس يميزون بين الصادق والكاذب بأنواع من الأدلة حتى فى المدعى للصناعات والمقالات كمن يدعى الفلاحة والنساجة والكتابة وعلم النحو والطب والفقه وغير ذلك ، والنبوة مشتملة على علوم وأعمال لابد أن يتصف الرسول بها وهى أشرف العلوم وأشرف الأعمال فكيف يشبه الصادق فيها بالكاذب ، ولا ريب أن المحققين على أن خبر الواحد والاثنين والثلاثة قد يقترن به من القرائن ما يحصل معه العلم الضرورى .. فإذا كان صدق المخبر وكذبه يعلم بما يقترن من القرائن فكيف بدعوى أنه رسول الله^(١) .

وإذن فقد ادعى محمد الرسالة وسمع بهذا أهل الكتاب - اليهود والنصارى - الذين كانوا مقيمين فى هذه المنطقة العربية من العالم ، وظهرت دلائل نبوة محمد أمام الجميع ، فقد توالى انتصاراته يوما بعد يوم على كل حاقه وكاره للإسلام ، لقد نصره الله على اليهود ، وعلى الرومان - حماة النصرانية فى ذلك الوقت - وعلى الفرس ، وعلى العرب ، وتناقل الناس خبر دعوة محمد ، وانتشر خبره فى الشرق والغرب والشمال والجنوب .

وتناقل الناس خبر انتشار دعوة محمد وكثرة أتباعه ، وآمن به كثير من الناس ، من اليمن والشام ، من فارس والعراق ، وتحدث الناس بانتصارات محمد على هذا الفريق وذاك الفريق ، وشاع خبره ، وذاع صيته ، وبقيت دعوته ، وتوحدت جماعته ، وزادت قوته .

فإذا كان هناك من ادعى الرسالة ، وثبت أن كثيرا من الناس قد اتبعوه ، ولكن بعض الناس قد خالفه وعانده ، ودارت المعارك بينه وبين المخالفين ، فنصر الله المؤمنين وأعز جانبهم وجعل العاقبة لهم ، وهزم الكافرين وشتت شملهم ، إذا كان الأمر هكذا ، كان ذلك من أظهر العلوم المتواترة وأوضحها فى إثبات النبوة .

ولم لا ونحن فى العصر الحاضر نسمع بصعود الإنسان إلى القمر فنصدق هذا الخبر ونحن لم نره ولم نشاهده ؟ ولم لا وقد كان صعود الإنسان إلى القمر فى أول الأمر من المستحيلات العقلية عند الناس ، ومع هذا صدقوا به وذلك لأنه حدث تواترت به الأخبار هنا وهناك ؟

(١) القاضى على بن محمد بن أبى العز الدمشى ، شرح العقيدة الطحاوية ، (تحقيق شعيب الأرنؤوط ، ط (١) ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م) ص ١٠٢ / ١٠٣ .

كذلك دعوى الرسالة من محمد ﷺ قد تواترت بها الأخبار وتناقلتها الأجيال حتى وصل أمره إلى كل قارة ، وعرف به القياصرة والأكاسرة ، الحكام والمحكومون، فكيف لا يصدق الناس برسائله وقد بلغت حد التواتر ؟

وحتى لا يقال : إن محمدا نبي للعرب خاصة فإنه عليه الصلاة والسلام قد .. دعا أهل الكتاب من اليهود والنصارى إلى الإيمان به وبما جاء به ، كما دعا من لا كتاب له من العرب وسائر الأمم ، وهو الذي أخبر عن الله تبارك وتعالى بكفر من لم يؤمن به من أهل الكتاب وغيرهم ويأنهم يصلون جهنم وساءت مصيرا ، وهو الذي أمر بمهادهم ودعاهم بنفسه ونوابه ، وحيثذ فقول أهل الكتاب لم يأت إلينا بل إلى الجاهلية من العرب سواء أرادوا به أن الله بعثه إلى العرب ولم يعثه إلينا ، أو أرادوا به أنه ادعى أنه أرسل إلى العرب لا إلينا فإنه قد علم جميع الطوائف أن محمدا دعا اليهود والنصارى إلى الإيمان به وذكر أن الله أرسله إليهم وأمره بجهاد من لم يؤمن به منهم ^(١) .

ولقد ذكر التاريخ - الذى دونه جميع الأمم - أن محمداً أرسل رسله وبعث كتبه إلى أقطار الأرض ، إلى كسرى وقيصر والنجاشى والمقوقس وسائر ملوك الدنيا فى ذلك الوقت يدعوهم إلى الإسلام ، وسمع بهؤلاء الرسل وتلك الكتب ، الشرق الغرب ، وإذن فمحمداً ليس دعيا وإنما هو رسول بحق .

وإذا كان لنا حق توجيه النصارى إلى الحق والإيمان برسالة محمد بن عبد الله - عليه الصلاة والسلام - إذا كان لنا هذا فإننا نقول لهم بما أنكم تقدسون بولس وترون أنه الرسول الأول بعد عيسى فاسمعوا ما يقوله بولس ، لقد قال : ((فى بعض رسائله أنه لا تبقى دعوة كاذبة فى الدين أكثر من ثلاثين سنة ... فلإن كان صادقا فما يحتاج معهم إلى برهان فى صحة الإسلام ونبوة محمد ﷺ سوى هذا ، فإن هذه الدعوة أربعمائة عام ونيفا وخمسين عاما ظاهرة والحمد لله رب العالمين فيلزمهم أن يرجعوا إلى الحق أو يكذبوا بولس بشيرهم)) ^(٢)

(١) ابن تيمية ، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ، ج١ ، ص ٥٠ .

(٢) ابن حزم (ابن محمد على بن أحمد بن حزم الظاهري) ، الفصل فى الملل والأهواء والنحل ؛ نشر مكتبة الخانجي بالقاهرة (ج٢ ، ص ٦١ .

وأضيف إلى هذا ، أن هذه الدعوى صار لها حتى وقتنا هذا ألفا وأربعمائة وثمانية عشر عاما^(١) وأهلها يزدادون ، ودينهم يصل إلى كل مكان في بقاع العالم ، فهل بعد هذا مجال لإنكار أو لجمود رسالة محمد ﷺ ؟

ولقد شهد مؤرخكم الكبير - سعيد بن البطريق - بوجود نبي^(٢) للمسلمين يسمى محمدا دعا الناس إلى الإسلام وأنه هاجر من مكة إلى المدينة ، كما أخذ - ابن البطريق هذا - يؤرخ للملوك ولعيسى ابن مريم محمدا عدد سنين حكمهم وحياتهم جاعلا الهجرة حدثا مهما يؤرخ به ، وفي ص ٧ من كتابه التاريخ المجموع قال : «وفي السنة الحادية عشرة من ملك هرقل توفى محمد بن عبد الله نبي المسلمين ، واذن فلا مجال لإنكار أن محمدا رسول الله ، وحيث إذا قال قولاً كان صادقا فيه لأن الرسل لا يكذبون ، وقد قال : إنه نزل عليه وحى من الله هو هذا القرآن الكريم فوجب عليكم يا أهل الكتاب أن تؤمنوا بهذا الكتاب الحكيم ، القرآن الكريم .

وليس من إنسان عاقل ومحايد ينكر هذه المعجزات الكثيرة التي ظهرت على يد محمد بن عبد الله تأييدا له من الله تعالى في دعوى الرسالة ، فلقد ظهرت على يديه معجزات باهرة شهد بها البار والفاجر ، الكافر والمؤمن العربي وغير العربي .

فلقد أسرى بمحمد من مكة إلى بيت المقدس وعرج به إلى السموات العلاء: ﴿سُبْحٰنَ الَّذِيٓ اَسْرٰى بِعَبْدِهٖ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ اِلَى الْمَسْجِدِ الْاَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهٗ لِنُرِيَهُ مِنْ مَّلاَئِكٰتِنَا اِنَّهٗ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيْرُ ﴿١٠﴾﴾^(٣) ، وطلب الناس منه أن يريهم آية فأراهم إياها ، وقد كانت انشقاق القمر إلى نصفين ، وقد تواترت الأخبار بهذا الحدث وجاء ذكره في القرآن الكريم حيث قال تعالى: ﴿اَفَرَمٰتِ السَّاعَةِ وَاَنْتَقَى الْقَمَرَ ﴿٤٢﴾﴾ ، وفي الحديث الذي رواه البخارى ومسلم عن ابن مسعود قال :

(١) ألف وأربعمائة وخمسة أعوام بعد الهجرة ، وثلاثة عشر قبل الهجرة فيكون المجموع : ١٤١٨ عاما .

(٢) سعيد بن البطريق ، التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ، بيروت ، مطبعة الآباء البوعيين ، ١٩٠٩ م ، من ص ١ - ٧ ، وقد جاء في هامش ص ١ : « كانت هجرة الذين اتخذوا العرب لهم نيا» .

(٣) سورة الإسراء : ١ .

(٤) سورة القمر : ١ .

« انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فرقتين ، فرقة فوق الجبل ، وفرقة دونه فقال رسول الله ﷺ اشهدوا^(١) ، والمعجزات كثيرة ، ونكتفى في هذا الموقف بما ذكرناه لكننا نستأنس لهذا الأمر بتلك المناظرة التي دارت بين الفخر الرازي وبين أحد القساوسة بخوارزم، ففي هذه المناظرة إلقام للحجر في أفواه المنكرين لرسالة محمد ﷺ ، يقول الرازي:

« اتفق أني حين كنت بخوارزم أخبرت أنه جاء نصراني يدعى التحقيق والتعمق في مذهبهم ، فذهبت إليه وشرعنا في الحديث فقال: ما الدليل على نبوة محمد ﷺ؟ فقلت له كما نقل إلينا ظهور الخوارق على يد موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء - عليهم السلام - نقل إلينا ظهور الخوارق على يد محمد ﷺ فإن رددنا التواتر أو قبلناه لكن إن قلنا: إن المعجزة لا تدل على الصدق فحيتذ بطلب نبوة سائر الأنبياء - عليهم السلام - وإن اعترفنا بصحة التواتر واعترفنا بدلالة المعجزة على الصدق ، ثم إنهما حاصلان في حق محمد ﷺ وجب الاعتراف قطعاً بنبوة محمد ﷺ ضرورة إذ عند الاستواء في الدليل لا بد من الاستواء في حصول المدلول^(٢) .»



(١) البخاري مجاشية السندی (عيسى الحلبي) كتاب تفسير القرآن ، سورة القمر ، ج ٣ ، ص ١٩٥ .

(٢) الفخر الرازي (محمد الرازي فخر الدين) ، التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب ، (ط ١ ، سنة ١٩٨١م) ج ٨ ، ص ٨٦ / ٨٧ .

القرآن سندا ونقلًا

الفصل الأول: القرآن كلام الله .

الفصل الثاني: نزول القرآن على رسول الله .

الفصل الثالث: المسلمون والقرآن .

الفصل الأول

القرآن كلام الله وليس كلام محمد

إن من أولى مراحل إثبات السند الصادق والأمين في تلقى القرآن وكتابته وانتقاله من جيل إلى جيل ، هو إثبات مصدر هذا القرآن ، وإثبات أنه وحى الله ، وأن محمدا ﷺ قد تلقاه من المولى عز وجل وحيا إلهيا ، وليس للصنعة البشرية فيه من دخل أو أثر ، وقد تضافرت الأدلة على إثبات هذا الأمر بحيث لم يعد هناك مجال لمتشكك أو متردد ، إلا من كان يعرف الحق ولكن يكابر ويعاند من أجل العناد وإثارة البلبلة في نفوس الناس ليقدم بذلك هدفا خبيسا في نفسه .

لقد كان العرب أهل فصاحة وبلاغة ، يجيدون صنعة الكلام ويحسنون حبكة الأساليب ، وصلوا في هذا القمة والذروة ، شعرا ونثرا ، خطابة وحكمة ، فقد كان الرجل منهم يقف أمام الجمع يلقى القصيدة ذات المئات من الأبيات دون إعداد أو بحث عن الأوزان والقوافي ، يقولها تلقائيا غير مكتوبة على ورق أو مطبوعة في كتاب لأن سليقته تعودت هذا ، وملكته أصبحت قادرة على ذلك ، وقل مثل هذا أيضا في الشعر ، فقد بلغوا فيه هذا الشاؤ من البلاغة وحسن التعبير وتمييق الألفاظ .

ومع هذا ، فحين جاءهم محمد ﷺ بالقرآن الكريم شهدوا له بأعلى درجات البلاغة والفصاحة ، لفظا ومعنى ، ترابطا وتسلسلا ، فائدة وقصدا. هذا هو أحد كفار قريش وأشدهم عنادا لرسول الله ، وعصيانا للمولى عز وجل يسمع قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠] .

فيقول شاهدا بعظمة القرآن : « والله إن له للخلوة وإن عليه لطلاوة وإن أسفله لمغدق وإن أعلاه لمثمر ، ما يقول هذا بشر » ولما سمع أعرابي أحد المسلمين يقرأ قول الله ﴿ فَأَصْدَحُّ بِمَا نُؤْمَرُ ﴾ [الحجر: ٩٤] سجد وقال: سجدت لفصاحته .

نعم لقد بلغ القرآن درجة عالية من الفصاحة والبلاغة لا تصل إليها همم أبلغ الرجال وأفصحهم ، فإن كان العرب قد ظهرت فصاحتهم في وصف الديار والتلال ، أو وصف ناقة أو حبيبة ، أو معركة حربية أو غارة انتقامية ، فإن هذا

شيء يمكن أن يصل إليه من كان سليم الذهن وتحصلت لديه ملكة البيان ، لكن القرآن الكريم تخطى هذه الصور التي يمكن للغير تحصيلها بكثرة المراس ، فجاء بالصور التي لم يستطع كل العرب ، بل كل الإنس والجن أن يأتوا بمثلها أو بمثل ما يقاربها .

لقد تخطى القرآن الكريم بفصاحته وبلاغته كل العهود والحدود التي عهدتها العرب من فصاحة الشعر وبلاغته ، فإن كان الشاعر يصدق في شعره أحيانا وفي أغلب الأحيان يكون شعره متسما بالكذب والخيال الخادع فإن القرآن كله صدق وحق ، مبرا من هذا الخيال المخادع وأساليب الكذب المغتره .

وما رأينا كاتباً ولا شاعراً يسير في كتابته أو شعره على وتيرة واحدة من البلاغة والفصاحة وحسن التعبير وعظيم البيان كما هو القرآن الكريم . إن الشاعر قد يكون في قمة البلاغة في بيت أو بيتين أو ثلاثة لكنه لا يستطيع أن يكون على مثل هذه الدرجة في كل القصيدة ، أما القرآن الكريم فمع كثرته وطوله تراه في أصغر سورة وأصغر آية هو في قمة البلاغة والفصاحة كما هو في أكبر سورة وأطول آية ، ميزان حكيم لا ينحبو ولا يكبو ولا ينظفي لأنه من عليم خبير .

وما أعجب هذه البلاغة وتلك الفصاحة التي نراها في قصص القرآن ، فإنك ترى القصة وقد تكررت مرات عديدة ، ومع هذا لا تشعر بفارق في علو اللغة ، ولا تحس بتفاوت في درجات البلاغة ، فإن جاءت القصة على طريق الإطناب فهي في أعلى درجات البلاغة ، وإن ذكرت بطريقة الإيجاز فهي أيضا في قمة الفصاحة .

ومع تعدد الأغراض في القرآن الكريم وكثرة القضايا التي يعرضها هذا الوحي السماوي ، ظل القرآن محافظا على فصاحته وبلاغته ، وكمال ترابطه . وحسن تعبيره ، وبديع مطابقتها ، وعظيم مقابلته ، ففي القرآن قضايا العقيدة والشريعة ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والموت والحياة ، والثواب والعقاب ، والترغيب والترهيب ، كلها أمور متقابلة ، وقضايا مختلفة ، ومع هذا عاجلها القرآن الكريم أتم معالجة وكان في كل هذا في أعلى درجات البلاغة والفصاحة وحسن الترابط ، فهل يستطيع محمد ﷺ أن يأتي بكل هذه الألوان والصور مع محافظته على التوازن البلاغي ، وترابط المعاني ، وتسلسل الأفكار كما في القرآن الكريم ؟

﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ (٨٢)

وليس يعقل قول من يدعى أن محمدا ﷺ استعان بالغير حتى استطاع إخراج هذا القرآن الكريم ، أو أنه نسجه من قصص وحكايات كان يسمعا من هنا وهناك ، أو قرأها في كتب الأولين ، فلقد ادعى الناس قديما وحديثا أن محمدا تعلم القرآن عن هذا الإنسان أو ذاك الإنسان ، فرد عليهم القرآن الكريم ردا علميا ومنطقيا ، مؤيدا بالحجة والبرهان ، فقال سبحانه : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءَهُ ظُلْمًا وَزُورًا ﴾ (١) ﴿ وَقَالُوا اسْتَطِيرَ الْأُولَىٰ أَسْتَبَّهَا فَمَنْ تَثَلَّىٰ عَلَيْهِ بُعْثَرَةٌ وَأَمْسِلَا ﴾ (٢) ﴿ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ (٣) ﴿ وَلَقَدْ نَعَلْنَا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانٌ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أُعْجِبُوا وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ شَبِيحٌ ﴾ (٤) ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذْكَأَنَّكَ تَتْلُو مِنَ الْكِتَابِ ﴾ (٥) .

لقد أخطأوا الطريق وجاءت التهمة في غير موضعها ، فمحمدا لم يكن قارئ ولا كاتباً ، ولم يعيش في بيئة عمتها الحضارة ورفرفت فوق ربوعها الثقافة حتى يظن أنها علمته وأعطته هذا الكتاب العظيم الذي امتلأ بالثقافات المتعددة والحضارات المختلفة التي أخبره الله بها وعلمه إياها .

ولو كانت الاستعانة - على أي صورة كانت - تفيد في إخراج كتاب مثل القرآن لكاتب العرب أسرع الناس إلى تحصيل هذا لأنهم كانوا في معركة فكرية ولغوية مع محمد ﷺ يتمنون النصر فيها بأي وسيلة كانت ، المهم أن يتصروا على محمد ، فلو كانت تعلم أن محمدا هو صانع هذا ؛ القرآن بمعونة من الغير لكانت هي الأخرى قد استعانت بهذا أو ذاك - وبخاصة أن اليهود كانوا يشجعونهم في هذا الطريق - ولكانت قد بذلت النفس والنفس لتحصيل هذه الاستعانة كي يأتوا

(١) النساء : ٨٢ .

(٢) الفرقان : ٤ - ٦ .

(٣) النحل : ١٠٣ .

(٤) العنكبوت : ٤٨ .

بكتاب يبطلون به هذا القرآن الذي تحداهم به محمد بن عبد الله - عليه الصلاة والسلام - وكيف لا والقرآن نفسه قد تحداهم أن يأتوا بمثله فلم يستطيعوا ، فليأتوا بعشر سور من مثله ، أيضا لم يستطيعوا ، فليأتوا بمثل أقصر سورة ، كذلك لم يستطيعوا ، فأين بلاغتهم ، وأين فصاحتهم ؟ أين سؤدهم ؟ وأين عزتهم ؟ قال سبحانه متحديا العرب أن يأتوا بشيء من القرآن :

﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَكُلُّ كَلِمَةٍ مِنْهُمُ يَعْنِي عَلَيْهِمْ ﴾ (١) ﴿ أَمْ يَقُولُونَ أَفَنُفِثَ قُلٌّ فَأَتُوا بِمِثْرِ سُوْرٍ وَمِثْلِهِ مَفْرُودَةٍ وَأَدْعُوا مَنْ أَسْتَلْعَثُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٢) ﴿ قَالُوا يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أُنْتَدَىٰ مُسْلِمُونَ ﴾ (٣) ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٤) ﴿ إِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْزِقُوا النَّارَ الَّتِي وُقِدَتْهَا النَّاسُ وَالْجِبَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ (٥) ﴿

ولكى تتضح للقارئ هذه البلاغة والفصاحة التي ننسبها للقرآن الكريم فهذا مثال واحد من أمثلة كثيرة يدل دلالة واضحة على علو بلاغة القرآن وفصاحته ، ذلك هو قوله تعالى :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَرْسُلًا أَنْ نَبِّئَهُمْ أَنْ تَرِضِيَهُمْ فَلَذًا خَفِيَ عَلَيْهِ كَلِمَتِهِ فِي الْيَسْرِ وَلَا تَخَافِ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا رَادُّوهُمُ بِالْآخِرِ بِمَا كَفَرُوا مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (٦) ﴿

إنها آية واحدة ولكنها امتلات فصاحة وبلاغة ، فقد جمعت أمورا متعددة ومتقابلة ، ومع هذا لا تشعر فيها بأى تضارب أو تناقض ، وكيف يكون هذا والقرآن وحى الله وكتابه الحكيم ؟ لقد جمعت هذه الآية بين أمرين (أرضعيه ،

(١) الإسراء : ٨٨ .

(٢) هود : ١٣ ، ١٤ .

(٣) البقرة : ٢٣ ، ٢٤ .

(٤) النقص : ٧ .

القيه) ونهين (لا تخافى ، لا تحزنى) وخبرين (إنا رادوه ، وجاعلوه) وبشارتين (إنا رادوه إليك ، وجاعلوه من المرسلين) .

إنه مثال واحد من أمثلة لا أستطيع حصرها ؛ لأن القرآن كله بلاغة ، وكله فصاحة ، بلاغة لا نظير لها ، وفصاحة لا تجارى ، وسيظل فياضا بالخير إن شاء الله تعالى .

ولعل قائلا يقول: إن القرآن ببلاغته هذه إنما هو معجز لأهل اللغة العربية فقط أما نحن الذين لا نعرف العربية ولا نتحدث بها ، فهذا الكتاب ليس بمعجز لنا ولا يصح أن يكون حجة علينا .

ولكن مثل هذا القول ليس من الصحة بمكان ؛ لأنه إذا ثبت إعجاز القرآن لجماعة من الجماعات وتواتر هذا الإعجاز أصبحت بقية الجماعات ملتزمة به ؛ لأنه إذا كان أهل البيان وأئمة اللغة قد وقفوا أمامه عاجزين فمن باب أولى غيرهم فيكون حجة عليهم .

وكيف لا وقد كان إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى تحديا لبنى إسرائيل وحدهم ومع هذا آمن بعيسى عليه السلام وصدق بمعجزته من ليس من بنى إسرائيل ؟ بل أكثر من هذا ، فقد خرج من تلاميذ عيسى وأتباعه من دعى بدعوته خارج بنى إسرائيل وأرسلوا الرسل والرسائل إلى أهل تسالونيكي وكورنثس وروما وفسس وفيلبي وكولسى .. إلخ ، مع أن معجزات عيسى كانت قد انتهت ، وهى فى أصل مجيئها لم تكن تحديا لأهل روما ولا إفسس ولا تسالونيكي ، وإنما كانت لبنى إسرائيل فقط .

ونقول للذين يرون أن القرآن غير معجز لهم : « بماذا عرفتم نبوة موسى ؟ فإن قالوا بما عمله من معجزات ، قلنا لهم : وهل فيكم من رأى هذه المعجزات ؟ وليس هذا لعمري طريقا إلى تصديق نبوة لأن هذا كان يلزمكم منه أن تكون معجزات الأنبياء باقية من بعدهم ليراها كل جيل بعد جيل فيؤمنوا به وليس ذلك بواجب ؛ لأنه إذا اشتهر النبى فى عصر وصحت نبوته فى ذلك العصر بالمعجزات التى ظهرت منه لأهل عصره ، ووصل خبره لأهل عصر آخر وجب عليهم تصديق نبوته وأتباعه لأن المتواترات والمشهورات مما يجب قبوله عقلا ، وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام فى هذا الأمر متساوون ... وأما معجزة القرآن فإنها

باقية ، وإذا كانت باقية فتلك فضيلة زائدة لا تحتاج إلى كونها سبب الإيمان^(١) . إذ يكفي فقط اشتها نوبة محمد ﷺ وظهور المعجزات على يديه حتى تؤمنوا به ويكون كتابه حجة عليكم ، فما بالكم والقرآن معجزة أمامكم ؟ ألا يكون هذا حجة عليكم ؟

على أن القرآن ليس معجزاً ببلأخته فقط وإنما هو معجز بذلك وبما ورد فيه من أخبار الأمم الماضية والرسول السابقين التي لا يمكن لبشر - مهما أوتى من العلم والمعرفة - أن يعرفها بدقائقها وتفصيلها كما وردت في القرآن الكريم ، لكن عمداً قد عرفها ، فكيف عرفها ؟ ومن الذي عرفه إياها ؟ إنها معرفة جاءت من الله العلي القدير . هي هذا الوحي العظيم والقرآن الكريم .

لقد عرف محمد أخبار آدم: أصله وخلقه ، وسجود الملائكة له ، ما كان بينه وبين إبليس اللعين ، ونزوله إلى الأرض ، وكيف خلقت زوجته حواء .. وعرف محمد أخبار لوط ، وكفر قومه ، وإتيانهم الرجال شهوة من دون النساء ، وكيف عاقبهم الله العقاب الشديد .

وعرف محمد خبر نبي الله يونس بن متى وقصته مع أهل السفينة حين ألغوه في اليم فالتقمه الحوت ولكن الله نجاه وأخرجه من بطن الحوت .

لقد عرف محمد أخبار الفرس والروم والأحداث التي كانت بين هاتين القوتين ، عرف محمد هذا كله ، وهذه شواهد ودلائل على أن القرآن ليس من صنع محمد ولا من صنع أحد من البشر وإنما هو وحي من على قدير ، سليم خبير ، إذ كيف عرف محمد بهذه الدقائق والتفاصيل وهو لم تكن عنده دراية بقراءة أو كتابة ؟ وكيف عرف هذا كله وقد وضم التوراة والإنجيل بالتحريف ، ووصم أهلهما بكتمان الحق حيث جاء في القرآن قوله تعالى:

﴿يَنْزِلُ الَّذِينَ هَادُوا وَمُجْرِمُونَ أَلَكِيمٍ عَنْ مَوَاضِعِهِمْ وَيَقُولُونَ مِمَّا نَعْتَمِدُ وَعَصَيْنَا﴾^(٢)

(١) السموال بن يحيى ، بذل المجهود في إفحام اليهود ... نقل عن : ابن القيم (أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الشهرى بابن قيم الجوزية) ، إعانة اللهفان من مصائد الشيطان (ط ١٣٨١ هـ - ١٩٦١ م) ج٢ ص ٣٢٠ .

(٢) النساء : ٤٦ .

﴿ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَكَّوْتًا لِلْكَذِبِ سَكَّوْتًا لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَعَنَ يَا تَوَكَّلُ
يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ ﴾ (١)

﴿ يَا هَلْ أَتَىكَ الْكِتَابُ لَمْ تَلْسِنْتَ أَلْحَقًا بِالْبَطْلِ وَتَكْتُمُونَ أَلْحَقًا وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾ (٢)

وكيف عرف محمد هذا كله والبعد الزمني بينه وبين هؤلاء الرسل يمنع من وصول هذه الأخبار إليه عن طريق هذا أو ذلك إذ كان الكفار يجاربونه ، وأهل الكتاب يعادونه ، والكل يجب عنه الحقيقة ؟ وذكر التوراة لشيء من هذه الأخبار الماضية ليس مؤهلا لأن نراها بهذا التفصيل وهذه الدقة وهذا التصوير البديع كما هي في القرآن الكريم.

والتوراة ليست مصدرا يوثق به حتى يستقى محمد منها أخبار الرسل السابقين فقد وصمتهم بالعار والفجور والقتل وعبادة الأوثان، في حين أن القرآن الكريم وصفهم بالإيمان الصادق ، وحب الله وحده ، وإخلاصهم في دعوة الناس إلى ربهم وخالقهم.

لقد كان محمد « أميا ما قرأ ولا كتب ولا اشتغل بمدرسة العلماء ولا مجالسة مع الفضلاء بل تربى بين قوم كانوا يعبدون الأصنام ولا يعرفون الكتاب ، وكانوا عارين عن العلوم العقلية أيضا ، ولم يرغب عن قومه غيبة يمكن له التعلم فيها من غيرهم ، والمواضع التي خالف القرآن فيها - في بيان القصص والحالات المذكورة - كتب أهل الكتاب كقصة صلب المسيح عليه السلام ، فهذه المخالفة قصدية إما لعدم كون بعض هذه الكتب أصلية كالتوراة والإنجيل المشهورين ، وإما لعدم كونها إلهامية ، ويدل على ما ذكرت قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ (٣)

والأعجب من هذا أن القرآن الكريم يعطى محمدا علما بأخبار من المستقبل ، ويعلم الناس بها ، ثم تتحقق كما أخبر بها- عليه الصلاة والسلام- فكيف عرف

(١) المائدة : ٤١ .

(٢) آل عمران : ٧١ .

(٣) رحمة الله الهندي : إظهار الحق ، (تحقيق عمر الدسوقي) ج ٢ ، ص ٩٤ / ٩٥

حمد هذا الغيب؟ وهل عند البشر قدرة على معرفة الغيب؟ اللهم لا، إلا إذا كان هذا وحيا كما حدث مع محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام فلقد أخبره الله بكثير مما يكون في المستقبل القريب والمستقبل البعيد، وتحقق هذا المستقبل، وشاهد هذا وشهد به من كان حيا من الناس في ذلك الوقت، فمن هذا: ما أخبر به محمد أصحابه بأنه قد رأى في منامه أن يدخل مكة هو ومن معه من المؤمنين، فلما رجعوا دون دخول مكة لصد الكفار إياهم شق ذلك على المؤمنين فنزل قوله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ سَاءَ اللَّهُ مَا مِيزَتْ مُحَلِّقِينَ وَهُمْ وَمَنْ مَقْصِرِينَ لَا تَحْفَافُونَ﴾^(١).

وانتظر الناس مسلمهم وكافرهم، وتحقق قول القرآن ودخل المسلمون المسجد الحرام في العام التالي آمنين غير خائفين، جاء في تفسير الجلالين قوله:

«رأى رسول الله ﷺ في النوم عام الحديبية قبل خروجه أنه يدخل مكة هو وأصحابه آمنين ويحلقون ويقصرون، فأخبر بذلك أصحابه ففرحوا فلما خرجوا معه وصددهم الكفار بالحديبية ورجعوا وشق عليهم ذلك ورأب بعض المنافقين نزلت... وتحققت الرؤيا في العام القابل»^(٢).

وهذا مقال ثان لمعرفة محمد- عليه الصلاة والسلام- بالغيب المستقبل عن طريق الوحي الإلهي الذي هو القرآن الكريم والذي جاء فيه قوله تعالى:

﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ ﴿١٤﴾ سَيُهْرَمُونَ الْجَمْعَ وَيَرْوُونَ الدُّبُرَ ﴿١٥﴾﴾^(٣).

كان الكفار يتعالون على المسلمين بكثرتهم وكونهم جمعا كثيرا، فلما قال أبو جهل يوم بدر إنا جمع منتصر نزل قوله تعالى: ﴿سَيُهْرَمُونَ الْجَمْعَ وَيَرْوُونَ الدُّبُرَ﴾ وتحقق وعد الله الذي أخبر به نبيه محمدا، وانتصر المسلمون على الكفار في غزوة بدر، عن عكرمة قال لما نزلت ﴿سَيُهْرَمُونَ الْجَمْعَ وَيَرْوُونَ الدُّبُرَ﴾ قال عمر: أي جمع

(١) الفتح: ٢٧.

(٢) تفسير الجلالين (جلال الدين الخلي، جلال الدين السيوطي) (دار المعرفة، بيروت، لبنان) ٦٨٣.

(٣) القمر: ٤٤، ٤٥.

يهزم؟ أي أي جمع يغلب؟ قال عمر فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يشب في الدرع وهو يقول: ﴿سَيَهْرُمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ﴾ فعرفت تأويلها حينئذ^(١).
وفي هذا المقام يأتي قول تعالى:

﴿الَّذِينَ غَلِبَتِ الرُّومُ (٤) فِي آدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ صَعَابُ يَوْمِ (٥) فِي يَضَعُ مِينِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلِ وَمِنْ بَعْدِ وَيَوْمَئِذٍ يَقْرَعُ الْمُؤْمِنُونَ (٦) وَيَنْصُرُ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٧) وَعَدَّ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ وَعَدَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٢).

جاء في ابن كثير تفسيراً لهذه الآيات قوله: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: كانت فارس ظاهرة على الروم. وكان المشركون يجيئون أن تظهر فارس على الروم، وكان المسلمون يجيئون أن تظهر الروم على فارس؛ لأنهم أهل كتاب وهم أقرب إلى دينهم، فلما نزلت:

﴿الَّذِينَ غَلِبَتِ الرُّومُ (٤) فِي آدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ صَعَابُ يَوْمِ (٥) فِي يَضَعُ مِينِينَ﴾^(٣).

قالوا يا أبا بكر إن صاحبك يقول: إن الروم تظهر على فارس في بضع سنين، قال صدق، قالوا هل لك أن تقامرك^(٤) فبايعوه على أربع قلائص^(٥) إلى سبع سنين، فمضت السبع ولم يكن شيء ففرح المشركون بذلك فشق على المسلمين، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: وما بضع سنين عندكم؟ قالوا دون العشر، قال اذهب فزايدهم وازدد سنتين في الأجل، قال فما مضت الستة حتى جاءت الركبان بظهور الروم على فارس ففرح المؤمنون بذلك^(٦).

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (دار المعرفة، لبنان) ج ٤، ص ٢٦٦.

(٢) الروم: ١-٦.

(٣) في الحديث الذي رواه الترمذي عن نيار بن مكرم الأسلمي أن هذا كان قبل تحريم الرهان.

(٤) القلائص جمع قلوص، والقلوص من النوق الشابة وهي بمنزلة الجارية من الناس (مختار الصحاح).

(٥) ابن كثير، تفسير القرآن الكريم، ج ٣، ص ٤٢٣.

وهكذا تحقق ما أخبر به القرآن الكريم ، فهل هناك إعجاز مثل هذا فى كتاب سماوى آخر ؟

ولأهل المادة وعشاق العلوم التجريبية نقول: إن القرآن الكريم قد جاءهم بكثير من المعجزات العلمية على يد محمد بن عبد الله - عليه الصلاة والسلام - الذى لم يدخل المعامل والمختبرات ، بل لم يكن يعرف القراءة والكتابة ، ولم تظهر هذه العلوم التجريبية إلا بعد الروى وعهد النبوة بقرون كثيرة ، ومع هذا نرى فى القرآن الكريم كثيرا من الآيات التى تدلنا على حقيقة علمية هى فى عصرنا الحاضر من اختصاص علم الأحياء أو الجيولوجيا أو علم الفلك .. إلخ، ولا ادعى أن القرآن كتاب فلك أو كيمياء أو طبيعة ولكن أقول أنه يرشدنا إلى مجمل الحقيقة العلمية وعلينا أن نبحث فيها ونجمل عناصرها حتى نصل إلى حقيقتها ، ومن هذا النوع قوله تعالى :

﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَبَرِينَ ﴾^(١) ترى ماذا يقول القرآن فى هذه الآية ؟

يقول ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ ﴾ أى تلقح السحاب فتدر ماء وتلقح الشجر فتفتح عن أوراقها وأكمامها .. وقال الأعمش عن المنهال بن عمرو عن قيس بن السكن عن عبد الله بن مسعود فى قوله تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ ﴾ قال ترسل الريح فتحمل الماء من السماء ثم تمر مر السحاب حتى تدر كما تدر اللقحة .. وقال الضحاك: يعثها الله على السحاب فتلقحه فيمتلئ ماء^(٢) . وهل يقول العلم الحديث غير هذا ؟ وهل ينكر أحد أن الريح تلقح السحاب فينزل المطر وتلقح الشجر فيزهر ويشمر ؟

وهذه صورة علمية أخرى من القرآن الكريم الذى أوحاه الله إلى محمد بن عبد الله - عليه الصلاة والسلام - إنها صورة فى نفس الموضوع ولكن بتعبير بلاغى جديد ، وبتصوير آخر بديع ، تقرأ الصورتين فتعجب من كل منهما تصويرا وتعبيرا

(١) الحجر : ٢٢ .

(٢) ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، ج ٢ ، ص ٥٤٩ .

فصاحة وبلاغة ، فلننظر ماذا يقول كتاب الله في هذه الصورة:

﴿الْقُرْآنَ اللَّهُ يُرْسِي سَعَابًا ثُمَّ يُلَافُ يَلَنَهُ ثُمَّ يَجْمَعُهُ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنزِلُ مِنْ السَّمَاءِ مِزَالًا فِيهَا مِنْ مَرْمَرٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ مَنَّا بَرْقُهُ بَدْهَبٌ بِالْأَبْصِيرِ ﴿٣٧﴾ ﴿١١﴾

فالقضية هنا بيان كيفية تكون المطر ونزوله وعلاقة الرياح بالسحاب في هذا الأمر ، قال عبيد بن عمير اللبثي: يبعث الله المثيرة فتقيم الأرض كما ، ثم يبعث الله الناشئة فتشع السحاب ثم يبعث المؤلفة فتؤلف بينه ثم يبعث الله اللواقح فتلتحم السحاب ^(١) . فهل يمكن لشخص محمد أن يعرف العلاقة الموجودة بين الرياح والسحاب والمطر إلا عن طريق هذا الوحي الذي أوحاه الله إليه وهو القرآن الكريم ؟

ونأتي إلى مثال علمي عظيم ما زالت البشرية تتفجع به إلى يومنا هذا ، وقد أخبر به القرآن الكريم حيث نزل وحيا على محمد بن عبد الله - عليه الصلاة والسلام - منذ أكثر من ألف وأربعمائة عام ، ذلك قوله تعالى : ﴿يَا قَلِيلٌ عَلِمَ أَنَّ تُسَوَّى بِنَاءِهِ ﴿٤﴾ ﴿٢﴾

لقد اتفقت النظريات الحديثة في علم البصمات مع هذه الآية ، فتسوية البنان شيء يمكن لله تعالى ولكن الله خلق الإنسان غير متماثل البنان ، وقد انتفع العلم الحديث بهذا، حيث ثبت بالبحث العلمي والتجارب العملية أن جميع بصمات الناس ليست متساوية بل هي مختلفة في كل مكان من العالم ؛ ولذلك استعمل العلم الجنائي بصمة الإنسان في تحقيق شخصيته ، يقول صاحب كتاب مناهل العرفان بعد هذه الآية : « أرجوا أن نقف قليلا عند تخصيصه « البنان » بالتسوية في هذا المقام ثم نستمع بعد ذلك إلى هذا العلم الوليد (علم تحقيق الشخصية) في عصرنا الأخير وهو يقرر أن أدق شيء وأبدعه في بناء جسم الإنسان هو تسوية

(١) النور : ٤٣ .

(٢) ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، ج٣ ، ص ٢٩٧ .

(٣) القيامة : ٣ ، ٤ .

(أى خلق) البنان حتى أنه لا يمكن أن تجد بنانا لأحد يشبه بنان آخر بحال من الأحوال ، وقد انتهوا من هذا القرار إلى أن حكموا البنان فى كثير من القضايا والحوادث ، فتبارك الله أحسن الخالقين^(١) ، فمتى توصل العلم الحديث إلى هذه الحقيقة ؟ فى العصر الحاضر ؟ بعد محمد بمئات السنين ؟ لكنها نزلت على محمد وحيا سماويا منذ أكثر من ألف وأربعمائة سنة ، فهل عرفت بهذا التوراة ؟ وهل تحدث عن هذا الإنجيل ؟ وهل كانت القبائل العربية تعرف ذلك حتى يدعى أن محمدا عرف هذا من الكتب السابقة أو من بيته ؟ ليس هناك من سبيل لمعرفة ذلك إلا الوحي السماوى الذى هو هذا القرآن الكريم .

إن « القرآن يثير وقائع ذات صفة علمية وهى وقائع كثيرة جدا خلافا لقلتها فى التوراة، إذ ليس هناك أى وجه للمقارنة بين القليل جدا لما أثارته التوراة من الأمور ذات الصفة العلمية وبين تعدد وكثرة الموضوعات ذات السمة العلمية فى القرآن وأنه لا يتناقض موضوع ما من مواضع القرآن العلمية مع وجهة النظر العلمية»^(٢).

وأخيرا نقول: إن القرآن وحى سماوى؛ لأنه معجز من جميع الوجوه ولجميع أهل الأرض ، ذلك أنه الكتاب الوحيد الذى كتب وتمت كتابته ورتب ونظم فى عهد الرسول الذى نزل عليه وبقي كتابه هذا بعد وفاته معجزة باقية بقاء الدهر ، فقال سبحانه: ﴿ إِنَّا مَعْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاطِقُونَ ﴿١﴾ ﴾^(٣) ، فإذا كانت معجزات موسى قد انتهت بانتهاء وقتها وأداء مهمتها وإذا كانت معجزات عيسى قد انتهت بانتهاء وقتها وأداء مهمتها ، فإن معجزة محمد ﷺ لم تنته ، ولم تنقض بل ما زالت باقية كتابا حكيما لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه لأنه تنزيل من حكيم حميد ، إنه ما زال معلنا تحديه للجميع لكن أحدا لا يستطيع أن يجاريه أو يدايه .

ولرحمة الله الهندي فكرة وجيهة لا بأس من الاستعانة بها هنا إذ يقول عن القرآن الكريم:

(١) الشيخ / محمد عبد العظيم الزرقانى ، مناهل العرفان فى علوم القرآن (ط ٣) ج١ ، ص: ٢٠ / ١٩

(٢) موريس بوكاى ، القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم (دار المعارف بمصر ، ص : ١١ / ١٢) .

(٣) الحجر : ٩ .

« كونه معجزة باقية متلوة في كل مكان مع تكفل الله بحفظه ، بخلاف معجزات الأنبياء فإنها انقضت بانقضاء أوقاتها ، وهذه المعجزة باقية على ما كانت عليه من وقت النزول إلى زماننا هذا ، وقد مضت مدة ألف ومائتين وثمانين^(١) وحتجتها قاهرة ، ومعارضته متمتعة وفي الزمان كلها ، القرى والأمصار مملوءة بأهل اللسان وأئمة البلاغة ، والملمحد فيهم كثير والمخالف العنيد حاضر ومهياً وتبقى إن شاء الله هكذا ما بقيت الدنيا وأهلها في خير وعافية ، ولما كان المعجز منه بمقدار أقصر سورة فكل جزء منه بهذا المقدار معجزة فعلى هذا يكون القرآن مشتملاً على أكثر من ألفي^(٢) معجزة^(٣) . »

والقرآن الكريم وحى الله؛ لأنه الكتاب السماوى الوحيد الذى اهتم بوحداية الله فدعا إليها ونقاها من وثنية الشرك ، وبتوة عزير اليهودى ، وبتوة عيسى ابن مريم التى ادعاها النصارى ، قال تعالى :

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِيُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَتَلْنَاكُمْ اللَّهُ آتٍ يَوْمَ كُونٍ ﴿٣٠﴾ أَتُخَدَّوْا أَجْسَادَهُمْ وَرُءُوسُهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ ﴾^(٤)

والقرآن الكريم وحى الله؛ لأنه الكتاب الإلهى الذى صدق بالكتب السابقة وأثبت وجودها وهو المهيمن عليها ، قال عز وجل :

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ ﴾

(١) وهذا وقت كتابته لكتاب ((إظهار الحق)) أما أنا فأقول : إنه قد مضى أكثر من ألف وأربعمائة سنة .

(٢) وهذا على أن آيات القرآن سنة آلاف ومائتا آية وكسر ، وأقصر سورة ثلاث آيات وإذن يكون القرآن مشتملاً على أكثر من ألفي معجزة .

(٣) رحمة الله الهندي : إظهار الحق جـ ٢ ص : ٩٧ / ٩٨ .

(٤) التوبة : ٣٠-٣١ .

(١)

وهو الكتاب الذي آمن بجميع الرسل والأنبياء وأعطاهم حقهم من التعظيم والتقدير ونزههم عن الفواحش والسيئات التي اتهموا بها في بعض الكتب السابقة ، قال سبحانه :

﴿ ءَأَمِنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَأَمِنَ بِإِلَهِهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا تَفْرِقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ﴾ (٢)

والقرآن الكريم وحى سماوى؛ لأنه الكتاب الذى اهتم بالدعوة إلى عمل الصالحات وترك السيئات ، كما أمر بالمعروف ونهى عن المنكر بصورة لا مثيل لها فى الكتب السابقة ، فإذا كانت بعض الكتب السابقة قد ركزت على أمور الحياة المادية . والبعض الآخر قد صب جل اهتمامه على الروحانيات ، فالقرآن الكريم قد جمع بين أمور الدنيا والآخرة . واهتم بمحاجات الجسم ومتطلبات الروح ، فقال سبحانه :

﴿ وَأَبْتَغِ فِيمَا ءَاتَاكَ اللَّهُ الْبَاطِرَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (٣)

حقا، القرآن الكريم وحى سماوى نزل من المولى - عز وجل - على رسوله محمد ﷺ وليس لمحمد فيه من عمل إلا وعيه وحفظه ونقله نقلا صحيحا عن رب العزة وتبليغه تبليغا أميناً للناس أجمعين ثم تبيينه لهم وتفسيره وتطبيقه وتنفيذه . ولا يستطيع إنسان عاقل غير حاقد إنكار هذه الحقيقة ، فقد تصافرت الأدلة والبراهين على هذا ، وشهد بذلك كل الباحثين المنصفين ، والتاريخ نفسه قد سجل هذا فى سجلاته ، وما على المنكرين من سبيل إذا ما قرأوا هذا التاريخ وعرفوا منه هذه الحقيقة .

(١) المائدة : ٥٠ .

(٢) البقرة : ٢٨٥ .

(٣) القصص : ٧٧ .

وحقيقة الإنسان الذي نزل عليه هذا الوحي ، والأحداث التي قارنت نزول الوحي ، والنصوص القرآنية الكثيرة ذات الاستدلالات المتعددة . هذه كلها شواهد وبراهين تؤكد بلا شك أن القرآن الكريم وحى إلهي وكتاب سماوي نزل على إنسان عربي اصطفاه الله واختاره للرسالة وليس له في هذا الوحي سوى التلقى عن ربه بواسطة جبريل وتبليغ هذا الوحي للناس وتعليمه لهم وتطبيقه عليه وعليهم .

لقد جاء في القرآن قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (١)

ولو كان هذا الكتاب من صنع البشر وليس بوحي لكان قد وجدت به من الأخطاء والأغلاط والاختلافات ما يشهد على صنعته البشرية ، إذ كيف لإنسان لا يعرف القراءة ولا الكتابة يأتي بهذا الكتاب الواسع الشامل الممتلئ علما وحكمة ، آدابا وأخلاقا ، عقيدة وشريعة ، سياسة حربية وعلاقات دولية ؟

وكيف يعطينا إنسان لا يعرف القراءة ولا الكتابة تحديدا دقيقا للسنين التي عاشها نوح ، وسنوات أهل الكهف ، وهو لم يدرس الحساب ولا الأنساب ، ولم يدرس التاريخ ولا علم الاجتماع ؟

كيف يأتي بهذا وبكثير غيره بهذه الدقة دون خطأ أو اضطراب أو تناقض ؟ قال سبحانه وتعالى :

﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ (٢)

نعم، لو كان القرآن من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافات واضطرابات كثيرة وذلك لأن القرآن الكريم نزل على مدى ثلاث وعشرين سنة - تقريبا - ومع هذا يقرؤه القارئ فيجده محكم النسيج، دقيق السبك ، مترابط المعاني ، متسق الآيات

(١) الشورى : ٥٢ .

(٢) النساء : ٨٢ ، ما ذكره المستشرقون والمبشرون من وجود التضارب والتناقض في القرآن استنادا على تعدد القراءات وصحة نزول القرآن على سبعة احرف سيرد عليه فيما بعد إن شاء الله .

والسور، ولو كان من صنع البشر - حتى لو كان هذا البشر محمدا بن عبد الله - ونزل هكذا حسب الوقائع والأحداث لظهر فيه التفكك والاضطراب ولما أمكن أن يكون متوافقا متناسقا كما هو الحال في القرآن الكريم الذى نزل وحيا من الحكيم العليم.

وهذا اعتراف من أحد النصارى فى العصر الحاضر يسجل فيه صدق القرآن وصحته سندا ومتنا فيقول :

« القرآن هو الوحي الذى أنزل على محمد ﷺ عن طريق جبريل . قد كتب فور نزوله ، ويحفظه ويستظهره المؤمنون عند الصلاة وخاصة فى شهر رمضان وقد رتب فى سور بأمر من محمد ﷺ نفسه ، وجمعت هذه السور فور موت النبى ﷺ وفى خلافة عثمان - (من السنة الثانية عشرة إلى السنة الرابعة والعشرين التالية لوفاة محمد ﷺ) - ذلك لتصبح النص الذى نعرفه اليوم ^(١) . »

والأحداث التى قارنت نزول الوحي على رسول الله ﷺ هى الأخرى تدل على أن هذا القرآن وحى الله العلى القدير وليس من عند محمد ، فلقد كان نزول جبريل ولقاؤه محمدا فى غار حراء أول صورة شاهدة بذلك ، لقد قال جبريل لمحمد : اقرأ فيقول محمد : ما أنا بقارئ فيمضه جبريل إليه ويضغط عليه مرة ومرة ومرة ، فلماذا يضغط جبريل عليه هكذا ؟ وما الحكمة فى هذا ؟ ليكون ذلك دليلا حسيا وعمليا على أن محمدا يتلقى وحيا إلهيا بالفعل وليس يحلم وليس يتخيل - كما يدعى المدعون - وإنما هذا الذى يراه ما هو إلا حقيقة ، وهو الوحي الإلهى نزل عليه من الله الذى اختاره رسولا لتبليغ هذا الوحي إلى الناس أجمعين .

لقد كان أول وحى نزل على الرسول فيه مطالبة من جبريل بالقراءة ، ثم ضم وضغط ، ويعود محمد إلى بيته مرتجفا مرتعدا وتشاهد خديجة هذا ، وتذهب به إلى ورقة بن نوفل ويشهد بأن ما نزل على محمد إنما هو الناموس الذى أنزله الله على موسى ﷺ هذه كلها شواهد حسية تقول لكل منكر ومعاند هذا القرآن وحى سماوى نزل على محمد ﷺ من رب العزة جل وعلا . وإلا فما الذى يلجئ محمدا إلى تحمل هذا الألم ، وهذا الرعب، وهذا الخوف ؟ ولو كان يريد مالا فالناس قد

(١) موريس بوكاي ، القرآن الكريم، ص : ١٠ / ١١ .

عرضوا عليه المال فلم يقبل ، ولو كان يريد جاها وسلطانا فالتاس قد عرضوا عليه الملك والرياسة فرفض ، فلماذا يعرض نفسه لهذه المواقف الصعبة ؟

وهل يستطيع إنسان أن يفتعل هذا الخوف وهذا الاضطراب بحيث يمتلكه الرعب وسيطر عليه الخوف ويشهد بهذا ورقة بن نوفل والسيدة خديجة ؟ إن العلم والطب يشهدان « أن الخوف والرعب ورجفان الجسم وتغير اللون ، كل ذلك من الانفعالات القسرية التي لا سبيل إلى اصطناعها والتمثيل بها ... وقد كان الله - عز وجل - قادرا أن يربط على قلب رسوله ويطمئن نفسه بأن هذا الذي كلمه ليس إلا جبريل : ملك من ملائكة الله جاء ليخبره أنه رسول الله إلى الناس ولكن الحكمة الإلهية الباهرة اقتضت إظهار الانفصال التام بين شخصية محمد ﷺ قبل البعثة وشخصيته بعدها وبيان أن شيئا من أركان العقيدة الإسلامية أو التشريع الإسلامي لم يطبخ في ذهن الرسول - عليه الصلاة والسلام - سابقا ولم يتصور الدعوة إلى شيء منه سلفا »^(١) .

ولقد شاهد الذين كانوا حول رسول الله ﷺ كثيرا من هذه الظواهر ، فلقد شاهدوه وقت نزول الوحي وهو فرق الناقة فإذا بها تنزل إلى الأرض من ثقل الوحي ، ورأوه وقت نزول الوحي في جو شديد البرد ولكنه كان يتصبب عرقا ، ورأوه بعد هذه المظاهر يدعو كتابة الوحي ويقول لهم اكتبوا كذا أو بشروا فلانا بنزول قرآن في حقه ، كما كان مع السيدة عائشة - رضی الله عنها - حين تغشاه الوحي ونزلت براءتها من السماء ، تقول السيدة عائشة :

« ... كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يرنسئ الله بها ، قالت فوالله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه ولا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله تعالى على نبيه فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحي حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمعان من العرق وهو في يوم شات من ثقل القول الذي أنزل عليه ، قالت فسرى عن رسول الله ﷺ وهو يضحك فكان أول كلمة تكلم بها أن قال أبشري يا عائشة أما الله - عز وجل - فقد براك^(٢) . »

(١) د . محمد سعيد رمضان البوهي ، كبرى البقييات الكونية (ط ٨ سنة ١٤٠٢هـ) ص : ١٩٠ /

(٢) ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، ج ٣ ، ص : ٢٧٠ .

ومن يقرأ القرآن سيقابله كثير من الضمانات التي تشير إلى الرسول ﷺ ويستحيل معها أن يكون هو قائل هذا الوحي ، وذلك مثل قوله تعالى :

﴿ وَالصَّحِيحَ ۝١ وَالَّذِينَ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَاللَّآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ وَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥ أَلَمْ يَجِدَكَ يَتِيمًا فَخَرَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَابِلًا فَأَغَىٰ ۝٨ ﴾ (١)

فكاف الخطاب هنا تمنع أن يكون محمد - عليه الصلاة والسلام - قائل هذا القرآن ومؤلفه ، وفي ذات الوقت تؤكد أن هذا القرآن وحى إلهي لأنه لا يعقل أن يخاطب الإنسان نفسه وهو وبهذه الرجاحة العقلية والفكرية ، ولا يجوز في الأسلوب العربي أن يستعمل الإنسان كاف الخطاب لنفسه فيقول : ربك ، يعطيك مخاطبا بها نفسه اللهم إلا إذا كان هناك سبب مرضي ، ومحمد ﷺ كان بريئا من مثل هذه الأمراض فكان صحيح العقل والفكر ، وقد شهد له بهذا الأعداء والأصدقاء .

ومثل هذا أيضا التحدث بياء المتكلم كقوله تعالى :

﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُنذِرَ مَنْ يَلْقَىٰ نَفْسًا مِنْ نَفْسِي إِنْ أَسْبَحُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٥ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٦ ﴾ (٢)

فلو كان محمد ﷺ هو كاتب هذا القرآن لكان قد كسب ود العرب فغير وبدل حسب هواهم ، ولكنه لم يستطع أن يفعل هذا ؛ لأن القرآن وحى إلهي ليس لمحمد فيه من عمل إلا تلقيه وحفظه وفهمه وتبليغه للناس وتعليمه لهم .

ولقد أفحم القرآن الكريم هؤلاء المتقولين على رسول الله ﷺ ، فلقد كان ﷺ يعيش بينهم طيلة أربعين سنة لا يحدثهم بشيء ولو كان الأمر راجعا لهواه ورغبته لكان قد ادعى هذا الوحي قبل ذلك ، إذ لا سبب يستوجب تأخير الإعلان عن

(١) الضحى : ١ - ٨ .

(٢) يونس : ١٥ - ١٦ .

هذا الوحي حتى بلغ محمد الأربعين سنة .

وغير هذا وذاك ، لو كان محمد هو الذي كتب القرآن بنفسه لكان فى إمكان العرب حيثذ أن يأتوا بمثل هذا القرآن - كما فعل محمد حسب دعواهم - فهو منهم ويتكلم لغتهم ولم يثبت أنه قال قصيدة شعرية مثل ما قال فصحاؤهم ، فكيف عجزوا عن مجاراته إن كان هو قائل هذا القرآن من عند نفسه ؟

ومما يؤكد أن القرآن وحى إلهى أنه تضمن عتابا لرسول الله ﷺ وليس يعقل أن يعاتب الإنسان نفسه ويظهر هذا أمام الناس كتابا يقرءونه صباح ومساء ، ومقتضى الحكمة - التى يفترض وجودها فىمن جاء بمثل هذا الكتاب من عند نفسه - ألا يسجل على نفسه هذا العتاب ، لكنها الأمانة فى التلقى وفى النقل ، إنها الصدق والتثبت واليقين الذى نقل قول الله تعالى :

﴿ مَا كُنْتَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَمْرٌ حَتَّى يُنْزِلَ فِي الْأَرْضِ فُرْقَانًا يُبَيِّنُ لِلنَّاسِ أَلْحُسْرَةَ وَالنَّجْوةَ وَاللَّيْلَةَ وَالنَّهَارَ وَالنَّجْمَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَاللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالنَّجْمَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَاللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالنَّجْمَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَاللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالنَّجْمَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ﴾ (١) ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾ (٢) ، وقول عز وجل : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَحْمَقُ (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهِ يُزَكَّى (٣) أَوْ يُلْقَى فَنَنْفَعَهُ الذِّكْرَى (٤) أَلَمْ يَأْمُرْ اسْتَفْتَى (٥) فَاتَّ لَّهُ نَصَلَى (٦) وَمَا عَلَيْكَ الْاِبْرَى (٧) وَأَمَّا مَنْ جَادَكَ يَجْسَبُ (٨) وَهُوَ يَخْتَبِئُ (٩) فَاتَّ عَنْ تَلْعَبُ (١٠) ﴾ (٣) ، أليست هذه الآيات شاهدة بأن هذا القرآن الكريم وحى سماوى ، وأنه عليه الصلاة والسلام يكلم من رب العزة ؟

لقد أخبر محمد بن عبد الله ﷺ عن أمور مستقبلية فحدثت وتحققت وشاهدها المؤمن والكافر ، فمن أين لمحمد غيبها ؟

ولقد كان مشركو قريش واليهود فى دأب مستمر وبحث متواصل للحصول على وسيلة يكشفون بها حقيقة هذا الذى يقول عنه محمد أنه وحى ينزل عليه من

(١) الأنفال : ٦٧ .

(٢) الأحزاب : ٣٧ .

(٣) عبس : ١-١٠ .

رب العزة ، فأرسلت قريش بعض رجالها إلى يهود المدينة ، ويعطيهم اليهود ثلاثة أسئلة هي في نظرهم الميزان والحكم الذي يبين هل محمد نبي يوحى إليه أم دعى متقول؟ وكانت الأسئلة الثلاثة عن حقيقة الروح ما هي؟ ومن هم الفتية الذين ذهبوا في الزمان الغابر؟ ومن هذا الرجل الذي جاب المشرق والمغرب؟

عن ابن عباس قال : « بعثت قريش النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار يهود بالمدينة فقالوا لهم سلوهم عن محمد وصفوا لهم صفته وأخبروهم بقوله فإنهم أهل الكتاب الأول وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء فخرجوا حتى أتيا المدينة فسألوا أحبار يهود عن رسول الله ﷺ ووصفوا لهم أمره وبعض قوله وقالوا إنكم أهل التوراة وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا ، قال : فقالوا لهم : سلوه عن ثلاث نأمركم بهن فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل وإلا فرجل متقول تروا فيه رأيكم: سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم فإنهم قد كان لهم حديث عجيب ، وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه، وسلوه عن الروح ما هو؟ فإن أخبركم بذلك فهو نبي فاتبعوه وإن لم يخبركم فإنه رجل متقول فاصنعوا في أمره ما بدا لكم ، فأقبل النضر وعقبة على قريش فقالوا: يا معشر قريش قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد ، قد أمرنا أخبار يهود أن نسأله عن أمور ، فأخبروهم بها فجاءوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد أخبرنا فسألوه عما أمروهم به فقال لهم رسول الله ﷺ : أخبركم غدا عما سألتم ولم يستثن فأنصرفوا عنه ومكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا يحدث الله إليه في ذلك وحيا ولا يأتيه جبرائيل عليه السلام حتى أرجف أهل مكة وقالوا وعدنا محمد غدا واليوم خمس عشرة قد أصبحنا فيها لا يخبرنا بشيء مما سألتنا عنه. وحتى أحزن رسول الله ﷺ مكث الوحي عنه وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة »^(١) ، نعم لقد سخر أهل مكة منه ﷺ ، وتأولوا عليه ولم يستطع أن يأتيهم بما وعد لأنه لا يتكلم من عند نفسه وإنما يوحى من الله تعالى ، والوحي الإلهي هو الذي يجيب عن هذه الأسئلة .

لقد روج أهل مكة الإشاعات ويشوا الأقاويل على محمد ، واغتموا فرصة للنيل منه ﷺ ومن رسالته ومن هذا الوحي الذي يدعيه ، ولو كان محمد هو الذي يؤلف القرآن ويدعيه وحيا لكان قد سارع بإجابة قريش على ما سألت ولا يوقع

نفسه في هذا الهرج والمرج ، والقيل والقال ، قال سبحانه وتعالى:

﴿ وَرَوَّيْنَا عَنْكَ بَعْضَ الْأَقْوَابِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَاهُ مِنَ الْآلِئِينَ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا يَنْتَكِرُونَ لِمَدْعَتِهِ حَنَازِينٍ ﴿٤٧﴾ ﴾^(١)

وأخيرا نقول لهذا المتقول - وأمثاله - على رسول الله ﷺ الذي يدعى أن محمدا صنع القرآن بنفسه ، وأن هذا القرآن ليس وحيا إلهيا ، نقول له: استفزز من استطعت من الناس - من العرب وغير العرب ، من العلماء وغير العلماء - بصوتك ، وأجلب عليهم بخيلك ورجلك ، وتجمعوا جميعا بما معكم من علم وأجهزة وآلات ثم اصنعوا مثل هذا القرآن ، وحيثما استفشلون فشلا ذريعا وستدركون أن هذا القرآن ما هو إلا وحى رب العالمين لمن اختاره رسولا للناس أجمعين .

والحق أن هذه القضية - قضية أن القرآن ليس من صنع محمد - « لو وجدت قاضيا يقضى بالعدل لاكتفى بسماع هذه الشهادة التي جاءت بلسان صاحبها على نفسه ﴿ قُلْ إِنَّمَا آتَيْتُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي ﴾ ولم يطلب وراءها شهادة شاهد آخر من العقل أو النقل؛ ذلك أنها ليست من جنس «الدعاوى» فتحتاج إلى بينة وإنما هي من نوع الإقرار الذي يؤخذ به صاحبه ولا يتوقف صديق ولا عدو في قبوله منه ، إذ أى مصلحة للعاقل الذي يدعى لنفسه حق الزعامة ويتحدى الناس بالأعاجيب والمعجزات لتأييد تلك الزعامة ، نقول أى مصلحة له فى أن ينسب بضاعته لغيره ، وينسلخ منها انسلخا؟ على حين أنه كان يستطيع أن يتحلها فيزداد بها رفعة وفخامة شأن ، ولو اتحلها لما وجد من البشر أحدا يعارضه ويزعمها لنفسه^(٢) . »



(١) الحاقة : ٤٤-٤٧ .

(٢) د. محمد عبد الله دراز . النبأ العظيم (١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م) ج ١ ، ص ١٤ / ١٥ .

الفصل الثاني

نزول القرآن على رسول الله

١- نزول القرآن مفروقاً:

نزل القرآن على رسول الله ﷺ مفرقاً على ثلاث وعشرين سنة . ثلاث عشرة سنة بمكة - كما هو رأى جمهور المسلمين - وعشراً بالمدينة ^(١) ، وفى نزول القرآن مفرقاً هكذا دليل آخر على أن سند هذا القرآن سند قوى وأنه - أى هذا القرآن - قد أحيط بكل ضمانات الصدق والأمانة ؛ وذلك لأن نزول كتاب مثل القرآن الكريم فى هذا الحجم من الضخامة ، وفى مثل هذه الكثرة من قضايا العقائد والتشريعات والأحكام والآداب لو نزل مرة واحدة لعجز الناس عن استيعابه وفهمه ، ولصعب عليهم حفظه والمحافظة عليه من الضياع والنسيان، قال سبحانه:

﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا ۝١١ ﴾

هذه الآية تثبت نزول القرآن مفرقاً وأنه نزل شيئاً فشيئاً كى يقرأه رسول الله ﷺ على الناس على مكث أى على تودة وتمهل وتثبت ، وإذن فالهدف من هذا التنزيل المفرق قراءة القرآن على الناس بطريقة سهلة وميسرة بحيث يكون هذا على مهل وتودة كى يستوعبه المسلمون ويستطيعوا حفظه ، ويسهل عليهم الوقوف على أسرارهِ وفهم دقائقهِ ، فإذا نزلت بعض الآيات واستطاع المسلمون قراءتها وحفظها وفهموا معانيها وأسرارها ثم نزلت بعد ذلك آيات أخرى لم تطغ الآيات الجديدة على الآيات السابقة؛ لأن هذه الآيات الأولى أصبحت مكتوبة فى السطور مطبوعة فى الصدور .

وفى نزول القرآن منجماً مراعاة لظروف الناس ومشاكلهم وقدراتهم إذ لو أعطوا هذا القرآن كله جملة واحدة لضعفت همهم عن تحمله ولعجزت عقولهم عن إدراكه وتقلت منهم تفلتا .

ولقد خطرت فكرة نزول القرآن جملة واحدة ببال كفار قريش واتخذوا من هذه

(١) محمد عبد العظيم الزرقانى ، متأهل العرفان، ج١، ص: ٤٤ / ٤٥ .

(٢) الإسراء: ١٠٦ .

القضية مستندا يستندون عليه في إملاء أمانهم على الله وعلى رسوله متساقلين لِمَ لَمْ ينزل القرآن جمًّا واحدة كما هو الحال في التوراة والإنجيل والزيور وسائر الكتب ؟ وحيتذ بين الله الحكمة من نزول القرآن منجما، فقال سبحانه: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴾^(١).

فقد حدد في هذه الآية الهدف من تنزيل القرآن منجما ، ألا وهو : تثبيت فؤاد الرسول فيقوى قلبه على تحمل القرآن وحفظه والمحافظة عليه والعمل بما فيه ، ذلك العمل الذي يتكرر مرات ومرات ، وذلك أدعى لزيادة الحفظ والتثبيت.

وإذا راعينا أن قوله تعالى: ﴿ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴾ يعطى معنى مجيء الكلام بعضه على إثر بعض على تودة ومهل^(٢) ، وأنه أيضا الترسل والتثبيت^(٣) ، إذا راعينا هذا علمنا أن طريقة نزول القرآن هذه إنما هي وسيلة من الوسائل التي أكرم الله أمة الإسلام بها للمحافظة على القرآن الكريم من الضياع أو النسيان أو الزيادة والنقص فيه ؛ لأن مجيء الكلام على تودة وتثبيت تتيح للمسلم حفظ هذا القرآن ووعيه وعيا تاما ، وترتيل القرآن ترتيلا ، أى إنزاله مفرقا حسب الحوادث وما يسألون عنه يكون أقرب إلى الحفظ والفهم والتثبيت ؛ لأن الارتباط بين آية من الآيات وهذا الحدث أو ذلك السؤال يطبع كلام الله في عقل المسلم فلا يمحي ولا ينسى ، قال صاحب الكشاف مبينا الحكمة من نزول القرآن منجما :

« والحكمة فيه أن نقوى بتفريقه فؤادك (أى فؤاد الرسول) حتى تعيه وتحفظه لأن التلقى إنما يقوى قلبه على حفظ العلم شيئا بعد شيء ، وجزءا عقيب جزء ولو ألقى عليه جملة واحدة لبعث به وتعا بمحفظه »^(٤).

(١) الفرقان : ٣٢ .

(٢) الرازى ، مفاتيح الغيب (دار الفكر) ١٢م ، ج ٢٤ ، ص ٧٩ .

(٣) الطبرى (أبى جعفر محمد بن جرير الطبرى) ، جامع البيان فى تفسير القرآن (دار المعرفة ، لبنان) ٩م ، ص ٩ .

(٤) الزمخشري (أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التنزيل (دار المعرفة ، لبنان) مج ٣ ، ص ٩١ .

ونزيد الأمر وضوحا بما جاء في كتاب الإتيان من قوله :

« قال أبو شامة ... فإن قيل ما السر في نزوله منجما ، وهلا أنزل كسائر الكتب جملة واحدة ؟ قلنا: هذا سؤال قد تولى الله جوابه فقال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ﴾ .. يعنون كما أنزل على من قبله من الرسل ، فأجابهم تعالى بقوله ﴿ كَذَلِكَ ﴾ أى أنزلناه كذلك مفرقا ﴿ لِنُنشِئَ بِهِمْ قُودًاكَ ﴾ أى لتقوى به قلبك ، فإن الوحي إذا كان يتجدد فى كل حادثة كان أقوى بالقلب وأشد عناية بالمرسل إليه . ويستلزم ذلك كثرة نزول الملك إليه وتجدد العهد به وبما معه من الرسالة الواردة من ذلك الجنب العزيز «^(١) .
وقد أفاض وأجاد الفخر الرازى فى توضيح الجواب على هذا السؤال فقال^(٢) :
وأجاب الله بقوله: ﴿ كَذَلِكَ لِنُنشِئَ بِهِمْ قُودًاكَ ﴾ .

وبيان هذا الجواب من وجوه: (أحدها) أنه التخيُّل لم يكن من أهل القراءة والكتابة فلو نزل عليه ذلك جملة واحدة كان لا يضبطه ولجاز عليه الغلط والسهو ، وإنما نزلت التوراة جملة لأنها مكتوبة يقرؤها موسى. (وثانيها) أن من كان الكتاب عنده ، فرمى اعتمد على الكتاب وتساهل فى الحفظ ، فالله تعالى ما أعطاه الكتاب دفعة واحدة بل كان ينزل عليه وظيفة ليكون حفظه له أكمل فيكون أبعد له عن المساهلة وقلة التحصيل. (وثالثها) أنه تعالى لو أنزل الكتاب جملة واحدة على الخلق لنزلت الشرائع بأسرها دفعة واحدة على الخلق فكان يثقل عليهم ذلك ، أما لما نزل مفرقا منجما لا جرم نزلت التكاليف قليلا قليلا فكان تحملها أسهل. (ورابعها) أنه إذا شاهد جبريل حالا بعد حال يقوى قلبه بمشاهدته فكان أقوى على أداء ما حمل ، وعلى الصبر على عوار النبوة وعلى احتماله أذية قومه وعلى الجهاد. (وخامسها) أنه لما تم شرط الإعجاز فيه مع كونه منجما ثبت كونه معجزا ، فإنه لو كان ذلك

(١) السيوطى (شيخ الإسلام) / جلال الدين عبد الرحمن السيوطى ، الإتيان فى علوم القرآن (ط ٣

سنة ١٣٧٠هـ - ١٩٥١م) ج١ ، ص ٤١ .

(٢) الفخر الرازى ، مفتاح الغيب م ١٢ ، ج ٢٤ ، ص ٧٩ .

في مقدور البشر لوجب أن يأتوا بمثله منجماً مفرقاً. (وسادسها) كان القرآن ينزل بحسب أسئلتهم والوقائع الواقعية لهم فكانوا يزدادون بصيرة ؛ لأن بسبب ذلك كان ينضم إلى الفصاحة الإخبار عن الغيوب. (وسابعها) أن القرآن لما نزل منجماً مفرقاً وهو الكتيب كان يتحداهم من أول الأمر فكانه تحداهم بكل واحد من نجوم القرآن فلما عجزوا عنه كان عجزهم عن معارضة الكل أولى فبهذا الطريق ثبت في فؤاده أن القوم عاجزون عن المعارضة لا محالة. (وثامنها) أن السفارة بين الله تعالى وبين أنبيائه وتبليغ كلامه إلى الخلق منصب عظيم فيحتمل أن يقال: إنه تعالى لو أنزل القرآن على محمد ﷺ دفعة واحدة لبطل ذلك المنصب على جبريل ﷺ فلما أنزله مفرقاً منجماً بقى ذلك المنصب العالی عليه فلاجل ذلك جعله الله - سبحانه وتعالى - مفرقاً منجماً.

والخلاصة:

أن إنزال القرآن منجماً هو طريق من طريق التثبيت في سند القرآن ونقله؛ لأن ذلك أدهى لحفظه والمحافظة عليه وعدم نسيانه ^(١)، كما أن فيه عناية فائقة بالمتن وهو كلام الله العزيز .

٢- قضية نزول القرآن على سبعة أحرف ^(٢) :

قرأت في كتاب « القرآن والمبشرون » ^(٣) أنه جاء في ملحق جريدة النهار البيروتية بتاريخ ١/١/١٩٦٥م بحيث يتفق ما فيه مع ما كتبه الأب يوسف إلياس الحداد في كتابه « القرآن والكتاب » ومضمون هذا البحث أن عثمان رضي الله عنه حين جمع

(١) فإن قيل قد ورد في الأحاديث أن رسول الله قد نسي بعض آيات القرآن وذلك فيما روتها السيدة عائشة رضي الله عنها قالت : ((كان النبي ﷺ يستمع قراءة رجل في المسجد فقال (أي رسول الله) رحمه الله لقد أذكرني آية كنت أنسيتها)) ، فالجواب على هذا : بأن الإنسان المذكور في الحديث إنما كان بعد تبليغه ﷺ هذه الآية للامة (مسلم بشرح النووي) (دار الفکر) ج٥ ، ص ٧٦ ، وقد أجمعت الأمة على امتناع نسيان رسول الله في الأقوال البلاغية واستحالة ذلك عليه (صحيح مسلم ج٥ ، ص ٦١/٦٢) .

(٢) إنما أفردت هذه الشبهة عنواناً خاصاً بها - مع أنها إحدى الشبه التي أثرت حول القرآن - لأنها كثر حولها اللغظ والتعلق بالأمانى الكاذبة .

(٣) عمد عزة دروزة ، القرآن والمبشرون (ط٣ سنة ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م) ص ٧٧ .

القرآن وكتبه على حرف واحد من الأحرف السبعة التي نزل بها قد أسقط بذلك الأحرف الستة الأخرى ، وهذا لإخفاء ما فى القرآن من مبيانات وتناقضات واختلافات ، ثم عقد الحداد مقارنة بين كتابة القرآن بحرف واحد وكتابة الأناجيل الأربعة مدعيا أنها : كانت أربعة لأنها كتبت على أربعة أحرف ، ولم يكن فيها شيء يخشاه أهل الإنجيل من تناقضات وتباينات ؛ لذلك احتفظوا بها كما نزلت ، وهذه شهادات متعددة بصحة الأناجيل ووحدة جوهرها واتفاق معانيها مع اختلاف ألفاظها .

وكان مما تضمنه هذا البحث أن الشرع العالمى الدينى والمدنى لا تقوم صحته على شهادة واحدة ، وكاتب البحث يقصد بهذا التعريض والغمز بالقرآن الكريم ، ثم ختم البحث فى النهار بأنه بهذا يكون : لصحة الأناجيل أربع شهادات بينما القرآن ليس إلا شهادة واحدة .

وقد تضمن هذا الادعاء عدة أمور هي :

- ١- أن نزول القرآن على سبعة أحرف دليل على أنه كانت به تناقضات وتباينات أخفاها عثمان بكتابه على حرف واحد .
- ٢- أن الأناجيل كتبت على أربعة أحرف وهذه شهادة بصحتها وصدقها .
- ٣- أن الأناجيل خالية من التناقضات والتباينات .
- ٤- أن الأناجيل وإن اختلفت فى ألفاظها فإنها متحدة الجوهر متفقة المعنى .
- ٥- أن الأناجيل لها أربع شهادات ، والقرآن ليس له إلا شهادة واحدة .

فأما الأمر الثانى والثالث والرابع فهى ادعاءات ساقطة ، ولا تقوم حجة علينا لأننا قد بينا فى البحث الخاص بالأناجيل أنها - أى الأناجيل - مختلفة اللفظ متناقضة المعنى مفككة الجوهر ، بها الكثير من الأخطاء والأغلاط ، وقد ذكرنا الأمثلة الدالة على هذا ، فلا حاجة بنا إلى إعادة الحديث عنها مرة ثانية ، ويكفى فقط أن نذكر صاحب هذا البحث بالتفكك والتناقض الواضح بين الأناجيل فى نسب عيسى عليه السلام وفى قصة صلبه ، وقصة ظهوره بعد الصلب .

أما ما يخصنا من هذه الأمور فى هذا البحث فهو الأمر الأول والخامس ، وعنهما نقول :

لو سلمنا جدلاً أن الإنجيل كتب على أربعة أحرف وأن هذه أربع شهادات بصحة ، فالعبرة ليست بالعدد وإنما العبرة بالصدق والاستيثاق ، فشهادة واحدة متواترة أحيطت بضمانات الصحة والصدق أفضل من أربع شهادات أداها مخرف ودجال وكاذب وكافر ، فالقرآن وإن كان شهادة واحدة - كما يقول الحداد - لكن لا تجد فيه نصاً متناقضاً مع نص آخر كما هو الحال في الأناجيل ، ولا تجد في القرآن معنى يباين معنى آخر كما هو الحال في نصوص الأناجيل الأربعة ، ومن كان غير مصدق فعلياً بقراءة الأناجيل الأربعة وسيصل إلى الدليل بنفسه .

إن القرآن في دعوته إلى الوحدة الخالصة متفق مع ما جاءت به كافة الرسل والأنبياء ، أما الأناجيل فليست هكذا ، إذ إن الإله فيها نزل وتجد في رحم امرأة وعاش بين الأحشاء والدماء ونزل من الفرج وعليه المشيمة تغلفه وتغطيه ، والإله في الأناجيل يضرب ويعذب ، ويصلب ويقتل وتدق المسامير في يديه ويتالم ويصرخ ويستغيث .

وأما أن الأناجيل كتبت بأربعة أحرف ، فهذا ادعاء كاذب؛ لأن المفسرين للأناجيل أكدوا أن إنجيل متى كتب باللسان العبراني ، وبأقوال الأناجيل كتبت باللسان اليوناني ، فأين أربعة الأحرف في هذا ؟ ثم إذا كان تعدد الأناجيل عبارة عن تعدد الأحرف التي نزلت بها ، فالحقيقة أن هذه الأناجيل كانت أكثر من ذلك بكثير ، ودائرة المعارف الأمريكية تشهد بذلك ، فقد ذكرت من هذه الأناجيل تسعة وعشرين إنجيلاً ، فهل نقول: إن الإنجيل نزل على ثلاثة وثلاثين حرفاً ؟ ولو اكتشفنا أناجيل أخرى تزيد في عدد الأحرف التي نزل بها الإنجيل مقابل هذه الزيادة التي اكتشفت بعد ذلك؟

أما قضية الأحرف السبعة التي نزل عليها القرآن الكريم ، فهذا حق لا مرية فيه ، ولكن الذي ليس بحق هو الادعاء القائل بأن عثمان رضي الله عنه أخفى ستة أحرف ، وأنه بهذا قد أخفى ما في القرآن من تناقض وتضارب ، فالصحيح أن هذه الأحرف السبعة التي نزل عليها القرآن ما هي إلا تنوع في وجوه القراءة ، تلفظاً وأداءً وذلك بقصد التسهيل على الناس في قراءة القرآن الكريم ، وحين كتب عثمان القرآن على حرف واحد كان يريد بذلك وحدة الأمة الإسلامية وتماسكها وذلك بسبب ما حدث من خلاف بين المسلمين في قراءة القرآن الكريم راجع إلى عدم معرفة هذا القارئ بالحرف الذي يقرأ به القارئ الآخر .

ولو كان ما فعله عثمان أمراً مشيناً وإخفاء لتناقضات في القرآن واختلافات فيه لكان قد عمل على إخفاء الأحاديث التي تقول بنزول القرآن على سبعة أحرف ، ولما كان وقف على المنبر وقال :

« أذكر الله رجلاً سمع النبي ﷺ قال : « إن القرآن أنزل على سبعة أحرف كلها شاف كاف » لما قام ، فقاموا حتى لم يحصوا فشهدوا أن رسول الله ﷺ قال : « أنزل القرآن على سبعة أحرف كلها شاف كاف » فقال عثمان ﷺ ، وأنا أشهد معهم ^(١) نعم لو كان عثمان يريد إخفاء اختلافات وتناقضات في القرآن الكريم لما احتاج الأمر إلى إشهاد هذا الجمع كله ، وكان الأفضل والأوفق في مثل هذا الأمر أن يشكك - مثلاً - في روايات النزول على سبعة أحرف ويحجر الناس - وهو الحاكم - على إهمالها وتركها ، أما أن يشهد الملائكة بأن القرآن نزل على سبعة أحرف فتلك محمودة وليست منقصة ؛ لأن التنوع في قراءة القرآن فيه تسهيل وتيسير على الناس في قراءة القرآن ، فقد كانوا كما قال النبي ﷺ « أمة أمية فيهم الرجل والمرأة ، والغلام والجارية والشيخ الفاني الذي لم يقرأ كتاباً قط » ^(٢) .

إن ادعاء إخفاء عثمان لتناقضات في القرآن الكريم يكذبه قول الرسول ﷺ : « أقرأني جبريل على حرف فراجعته فلم أزل أستزيده ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف » ^(٣) ، ففي هذا الحديث : أن الرسول هو الذي طلب الزيادة وأن جبريل هو الذي زاده هذه الأحرف ، فهي من الله ؛ لأنها من الله فهي مبرأة من التناقض والتباين ، وبالتالي القرآن مبرأ من ذلك .

وإذا كان الرسول هو الذي طلب هذه الزيادة فهل يطلب زيادة تؤدي إلى التناقض والاختلاف ؟ وهل من يدعى أنه رسول يأتي الناس بالمتناقض الذي يحير سامعه أم يأتيهم بالحيوك ^(٤) المتوافق المتناسق الذي يأخذ على الناس مشاعرهم وأحاسيسهم وألبابهم ؟

(١) رواه الحافظ أبي يعلى في مستدركه الكبير .

(٢) مستدرك أحمد بن حنبل ٥ ص ٤٠٠ ، ٤٠٥ .

(٣) اللؤلؤ والمرجان ، حديث رقم ٤٦٩ .

(٤) حيك الثوب ، أجاد نسجه ، وقال ابن الأعرابي : كل شيء أحكمته وأحسنه عمله فقد احتبكه (مختار الصحاح) .

إن من يكتب كتابا في الجغرافيا أو التاريخ يحاول جهد طاقته حتى يخرج الكتاب على أحسن ما يكون نظما وفكرا وتنسيقا ، فمن باب أولى من يقول: إن هذا الكتاب وحى إلهي وتشريع ديني ..

ولو كان بالقرآن تناقض قبل جمع عثمان للقرآن ثم عمد إلى إخفاء هذا التناقض لكانت العرب قد اكتشفت هذا التباين والتناقض - بحكم بلاغتهم وفصاحتهم وسليقتهم العربية- منذ مجيء هذا القرآن ، وحينئذ يناقضون عمدا ويتحدونه ويبرزون هذه الاختلافات للغادى والرائح حتى بصرفوا الناس عن هذا الدين الجديد .

وهذا القرآن الذي وبخ اليهود والنصارى ووصفهم بالكفر والتناق وأردل الصفات ولعنهم في الدنيا والآخرة ، لو كان فيه تناقض أو تباين لاغتم بنو إسرائيل هذه الفرصة فكشفوا للناس عورات هذا الكتاب وبينوا ما فيه من أخطاء وأغاليط ، لكن ذلك لم يحدث؛ لأن الجميع كانوا يعرفون أن القرآن وحى منزل من الله تعالى وحينئذ لا يمكن أن يكون فيه تناقض أو تباين .

إن الرسول ﷺ قد حدد الهدف من هذه الأحرف السبعة فقال لأبي بن كعب :

« أرسل إلى أن اقرأ القرآن على حرف فرددت إليه أن أهون على أمتى فرد إلى الثانية اقرأه على حرفين ، فرددت إليه أن هون على أمتى فرد إلى الثالثة اقرأه على سبعة أحرف »^(١) والتهوين على الأمة لا يميز وجود التناقض والاختلاف في هذا القرآن لأن ذلك يؤدي إلى الحيرة والصعوبة .

وتساءل الحداد - كاتب البحث - في خيث ودعاء : لو كان المسلمون قد تركوا هذه الأحرف الستة - أى لم يخفوها - لكننا قد عرفنا ما كان في الحروف الستة من تناقضات واختلافات بالنسبة إلى الحرف الذي أثبتوه واقتصروا عليه^(٢) .

ونحن نقول للحداد: إن المصاحف العثمانية قد اشتملت على الأحرف السبعة وهي: الأوجه^(٣) التي يرجع إليها كل اختلاف في القراءات ... ونحن إذا رجعنا

(١) رواه مسلم (صحيح مسلم بشرح النووي - دار الفكر) م ٦٣ ج ١ ص ١٠٢ / ١٠٣ .

(٢) محمد عزة دروزة ، القرآن والمبشرون (ط ٣) ص ٧٨ ، ٨٣ ، ٨٧ .

(٣) أستمح القارئ عنرا في نقل ثلاث صفحات من كتاب وذلك لأهمية هذا الرد ، وبيان وجه الحق فيه .

بهذه الأوجه السبعة إلى المصاحف العثمانية وما هو مخطوط بها في الواقع ونفس الأمر ، نخرج بهذه الحقيقة التي لا تقبل النقض وتصل إلى فصل الخطاب في هذا الباب ، وهو أن المصاحف العثمانية قد اشتملت على الأحرف السبعة كلها ولكن على معنى أن كل واحد من هذه المصاحف اشتمل على ما يوافق رسمه من هذه الأحرف كلا أو بعضا بحيث لم تخل المصاحف في مجموعها عن حرف منها رأسا (وفيما يلي بيان ذلك).

أما الوجه الأول منه وهو اختلاف الأسماء أفرادا وجمعا .. إلخ نحو قوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾^(١) المقروء بجمع الأمانة وإفرادها ، فقد اشتمل عليها المصحف إذا كان الرسم العثماني هكذا :

﴿لَأَمْنَتِهِمْ﴾ يرسم المفرد في الحروف ولكن عليها ألف صغيرة لتشير إلى قراءة الجمع ، وغير منقوطة ولا مشكولة .

وأما الوجه الثاني وهو اختلاف تصريف الأفعال نحو قوله سبحانه: ﴿يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامِهِمْ﴾^(٢) المقروء بكسر الكاف وضمها في الفعل ، فقد وافقت كلتا القراءتين رسم المصحف العثماني أيضا؛ لأن هيكل الفعل واحد في الخط لا يتغير في كلتا القراءتين ، والمصحف العثماني لم يكن معجما ولا مشكولا .

وأما الوجه الثالث وهو اختلاف وجوه الإعراب كقراءة ﴿وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ﴾^(٣) . بفتح الراء وضمها ، فإن الرسم يحتملها كالوجه السابق ، وهو واضح .

وأما الوجه الرابع وهو الاختلاف بالنقص والزيادة فمنه ما يوافق الرسم في بعض المصاحف نحو قوله سبحانه في سورة التوبة:

(١) المؤمنون : ٨ .

(٢) الأعراف : ١٣٨ .

(٣) البقرة : ٢٨٢ .

﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّتٍ تَجْرِي مَحْتَهَا الْأَنْهَارُ ﴾^(١). وقرئ « تجرى من تحتها » بزيادة لفظ « من » وهما قراءتان متواترتان، وقد وافقت كلتاها رسم المصحف، بيد أن ذات الزيادة توفق رسم المصحف المكي؛ لأن لفظ « من » ثابتة فيه، أما حذفها فإنه يوافق رسم غير المصحف المكي حيث لم تثبت فيه أى فى غير المصحف المكي، ومن هذا الوجه مالا يوافق رسم المصحف بحال من الأحوال نحو قوله سبحانه: ﴿ وَكَانَ وِرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِيئَةٍ غَضْبًا ﴾^(٢) بزيادة كلمة « صالحه » فإن هذه الكلمة لم تثبت فى مصحف من المصاحف العثمانية فهى مخالفة لخط المصحف؛ وذلك لأن هذه القراءة وما شاكلها منسوخة بالعرضة الأخيرة أى عرض القرآن من النبى ﷺ على جبريل آخر حياته الشريفة، وبدل على هذا النسخ إجماع الأمة على ما فى المصاحف.

فتلخص مما ذكرنا أن بعض هذا الوجه الرابع اشتملت عليه المصاحف، وبعضه لم تشتمل عليه لأنه نسخ.

وأما الوجه الخامس وهو الاختلاف بالتقديم والتأخير فهو مثل سابقه، منه ما هو موافق لرسم المصحف نحو قوله سبحانه فى سورة التوبة: ﴿ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا ﴾^(٣).

قرئ الفعل بالبناء للفاعل فى الأول، وللمفعول فى الثانى، وقرئ بالعكس، وهما قراءتان متواترتان، ولا يخالف شيء منهما رسم المصحف، ومنه ما خالف رسم المصحف نحو قوله سبحانه:

﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ﴾^(٤). وقرئ (وجاءت سكرة الحق بالموت) فإن هذه القراءة الثانية لا يَحْتَمِلُهَا رسم المصحف وإن كانت منقولة عن أبى بكر

(١) التوبة: ١٠٠.

(٢) الكهف: ٧٩.

(٣) التوبة: ١١١.

(٤) ق: ١٩.

الصدیق وطلحة بن مطرف ، وزین العابدین (رضی الله عنهم) لكنها لم تتواتر فهي منسوخة بالعرضة الأخيرة ، وإجماع الصحابة على المصحف العثماني .

وأما الوجه السادس ، وهو الاختلاف بالإبدال ، فقد وافق بعضه رسم المصحف وخالفه البعض أيضا ، مثال ما وافق الرسم قوله سبحانه :

﴿ إِنْ جَاءَ كُمْ فَاسِقٌ بِنَبِيٍّ فَتَيَبَّوْا ﴾^(١) وقرئ ﴿ فَتَيَبَّوْا ﴾ .

وهما قراءتان متواترتان وتوافق كلتاها رسم المصحف ، ومثال الثاني قراءة إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فامضوا إلى ذكر الله ، وقراءة (وتكون الجبال كالصوف المنفوش) .

فإنهما مخالفتان لرسم المصحف وذلك لنسخهما بالعرضة الأخيرة أيضا واستقرار الأمر على ما وافق الرسم منه وهو قراءة .

﴿ فَاسْتَعِزَّوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ وقراءة ﴿ كَالْيَتِيمِ الْآمَنُوشِ ﴾ .

وأما الوجه السابع وهو الاختلاف بسبب تباين اللهجات فيوافق رسم المصحف موافقة تامة لأنه اختلاف شكلي لا يترتب عليه تغيير جوهري للكلمة وهو ظاهر ، وتجسد شواهد كثيرة في خط المصحف تدل على بعض هذا النوع من الاختلاف ، نحو ﴿ وَهَلْ أُنْتِكَ حَدِيثٌ مُوسَى ﴾ فإنها رسمت هكذا يباء في الفعل بعد التاء ، ويقلب ألف موسى ياء ومن غير شكل ولا إعجام^(٢) .

وبعد أن ذكرنا الصور السبع لتزول القرآن على الأحرف السبعة ، هل في هذه الصور تناقض واختلاف ؟ وهل في معاني الآيات تضارب وتباين ؟ وهل بين مدلولات معاني القرآن تدافع وتنافر ؟

(١) الحجرات : ٦ .

(٢) محمد عبد العظيم الزرقاني ، مناهل العرفان ج١ ، ص ١٦٢ - ١٦٤ .

الفصل الثالث

المسلمون والقرآن

١- تعلم المسلمين القرآن الكريم:

هذا طريق آخر من طرق التثبيت والمحافظة على القرآن الكريم ، وذلك هو كيفية تعلم المسلمين للقرآن الكريم ، فما كان المسلمون يتجاوزون خمس الآيات إلا إذا حفظوها وفهموها ورعوها وعيا تاماً.

وكان المسلمون الأوائل يتدافعون ويتسابقون لسماع القرآن من رسول الله ﷺ وحفظه مشافهة منه ﷺ ، وقد ساعدتهم على هذا نزول القرآن بلغتهم ، ومقدرتهم اللغوية ، وفصاحتهم التي اشتهروا بها ، وطباعهم السليمة حتى إنهم كانوا يؤدونه كما سمعوه من رسول الله ﷺ وبذلك لم يتقطع التواتر في حفظ القرآن وسماعه من رسول الله ، وبالتالي لم يتطرق إلى القرآن الكريم تحريف ولا تبديل ولا خطأ ولا نسيان.

أخرج ابن عساکر عن أبي نضرة قال: كان أبو سعيد الخدري يعلمنا القرآن خمس آيات بالغداة وخمس آيات بالعشي، ويخبر أن جبريل نزل بالقرآن خمس آيات خمس آيات ، وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن عمر قال: « تعلموا القرآن خمس آيات خمس آيات فإن جبريل كان ينزل بالقرآن على النبي خمساً خمساً » ، وأخرج البيهقي أيضاً عن خالد بن دينار قال: قال لنا أبو العالية: احفظوا القرآن خمس آيات خمس آيات فإن النبي ﷺ كان يأخذ عن جبريل خمساً خمساً .

ولا شك أن إنسانا يشحذ ذهنه ويجمع قدراته وذكائه وما في نفسه من شوق وحب للقرآن من أجل دراسة خمس آيات ، لا شك أن هذا الإنسان في النهاية سيكون قد أتم حفظ هذه الآيات ووعاها وفهمها فهما تاماً ، وهذا في حد ذاته وسيلة من وسائل المحافظة على القرآن الكريم والتثبيت في كتابته ونقله، وهذه منة عظيمة ونعمة جليلة امتن الله بها على أمة الإسلام .

وقد كان صحابة رسول الله ﷺ يعرضون ما حفظوه من القرآن وما كتبه منه على رسول الله استيثاقاً وتثبيتاً من حفظهم وكتابتهم للقرآن.

وقد ذكرت كتب الأحاديث أسماء كثيرة من الصحابة الذين كانوا حافظين

للقرآن في صدورهم - والرسول بين أظهرهم - فضلا عن كونه مكتوبا عندهم ،
من هؤلاء:

- ١- أبو بكر الصديق.
- ٢- عمر بن الخطاب.
- ٣- عثمان بن عفان.
- ٤- علي بن أبي طالب.
- ٥- عبد الله بن مسعود.
- ٦- معاذ بن جبل.
- ٧- سالم بن معقل مولى أبي حذيفة.
- ٨- أبي بن كعب.
- ٩- زيد بن ثابت.
- ١٠- أبو الدرداء.
- ١١- أبو زيد بن السكن.
- ١٢- سعيد بن عبيد.
- ١٣- طلحة بن عبيد الله.

ويضاف إلى هؤلاء السبعون الذين قتلوا ببئر معونة في عهد النبي ﷺ ، ومثل هذا العدد قتل في يوم اليمامة ، وغيرهم كثير .

وهكذا حفظ الصحابة القرآن الكريم ، ودرسوه ثم نقلوه إلى من بعدهم ، وتوالى نقل القرآن - حفظا وكتابة - من جيل إلى جيل ، ومن جماعة إلى جماعة عن طريق الحفظ في الصدور والتلقى سماعا ، وتلك هي أقوى وأمتن الوسائل والطرق في المحافظة على الكتب الدينية سندا ونقلا ، نصا وممتا ، ولم تكن تلك الطريق لكتاب غير القرآن ، قال ابن الجوزي :

« إن الاعتماد في نقل القرآن على حفظ القلوب والصدور لا على خط المصاحف والكتب أشرف خصيصة من الله تعالى لهذه الأمة »^(١) .

ولقد كان من شدة اهتمام الرسول ﷺ بالقرآن والمحافظة عليه والتثبيت في حفظه أنه ﷺ كان يعرض ما معه من القرآن على جبريل في كل عام مرة ، فكان ﷺ يقرأ القرآن أداء كما سمعه من جبريل ، وجبريل يقابل هذا بالوحي الإلهي . وفي العام الذي توفي فيه رسول الله عرض القرآن على جبريل مرتين .

عن عبد الله بن مسعود - رضى الله عنهما - قال: « كان رسول الله ﷺ أجود

(١) نقلا عن كتاب مباحث في علوم القرآن ، مناع القطان (ط ١٢ سنة ١٤٠٣ - ١٩٨٣) ، ص ١٢٣

الناس وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن»^(١) وعن عائشة وفاطمة - رضی الله عنهما - «سمعنا رسول الله ﷺ يقول: «إن جبريل كان يعارضني القرآن في كل سنة وأنه عارضني العام مرتين ولا أراه إلا حضر أجلى»^(٢).

٢- كتابة القرآن؛

حين نتحدث عن كتابة القرآن وجمعه نجد أنفسنا أمام أقوى الأسانيد وأعلاها صدقا وأمانة وثبتا .

فالقرآن الكريم يمتاز عن الكتب السابقة بأنه الكتاب السماوي الوحيد الذي كتب كله وتمت كتابته والرسول الذي نزل عليه حتى يقرؤه أمام المسلمين ويسمعونه منه ، ثم لما مات بقي هذا الكتاب كما هو - حتى يومنا هذا - بلا زيادة ولا نقصان ولا تغيير لأنه كان قد نقش في صدور المسلمين حفظا وثبتا ، وكتبوه في السطور على العصب واللخاف والرقاع والأكتاف ، وكانوا يتدارسونه فيما بينهم والمصطفى ﷺ بين أظهرهم يفسره لهم ويشرحه ويوضحه ، ومنعا للشبهة أو اختلاط القرآن بغيره كان ﷺ يمنع المسلمين من كتابة السنة وقت نزول القرآن أو كتابتها معه في صحيفة واحدة، فقد روى مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: « لا تكتبوا عني ومن كتب غير القرآن فليحجه »^(٣) ، فلما خالطت بشاشة القرآن قلوبهم وتعودوا على أسلوبه وأصبحوا مدركين للفرق بين السنة والقرآن بلاغة وفصاحة ، لفظا ومضمونا ، سمح لهم الرسول ﷺ بكتابة السنة ، وهذا من عوامل وأسس تأكيد الثمة والصدق في كتابة القرآن ونقله .

ولم ينتظر الرسول حتى انتهاء نزول القرآن فيكتبه كله مرة واحدة، وإنما كان يكتبه أولا بأول حتى لا يطرأ سهو أو نسيان من هذا أو ذاك ، وكذلك حتى لا يقع كتابة الوحي في خطأ وهم يكتبون بسبب كثرة ما يكتبونه عن الوحي إن هم أخرجوا الكتابة حتى نزول القرآن كله.

كذلك لم يكتب القرآن عن طريق شخص واحد حتى لا يقال: إنه يمكن لهذا

(١) متفق عليه (وانظر فتح الباري بشرح البخاري) ج١ ، ص ٣٣ .

(٢) مسند أحمد بن حنبل ١٦ ، ص ٢٧٥ / ٢٧٦ ، وأيضا ابن ماجه ، كتاب الصيام باب ٥٨ .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي ج١٨ ، ص ١٢٩ .

الشخص أن يتصرف فيما كتبه أو فيما يكتبه بالزيادة أو النقصان، وإنما كان لرسول الله ﷺ كنية متعددة يكتبون الوحي الذي يمليه الرسول عليهم ، فلا ننسى عليا ، ولا معاوية ، ولا أبي بن كعب ، ولا زيد بن ثابت ، أولئك الذين يكتبون الوحي ويحفظونه من رسول الله في نفس الوقت ولا ننسى بقية المسلمين الذين كانوا يعرفون القراءة والكتابة حيث كانوا يتسابقون إلى كتابة أى آية تنزل على رسول الله ﷺ ثم كانوا يعرضون ما كتبوه على رسول الله زيادة في الثبوت .

وازياداً في الثبوت والاستيثاق كان ﷺ إذا أمر كتابة الوحي بكتابة آية من كتاب الله طلب منهم قراءتها عليه فيعرض ما كتبوه على ما كان تلقاه من جبريل ، والذي أصبح محفوظاً في صدره ﷺ يجرى به لسانه سهلاً يسيراً ﴿ لَا تُحْرِكُ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ (١) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿ (١)

ويعد أن تمت كتابة القرآن الكريم كله وانتهى الوحي السماوي بدأت مرحلة جديدة من مراحل المحافظة على القرآن الكريم والثبوت في كتابته ونقله ، تلك هي مرحلة جمع القرآن ، وقد كانت هذه المرحلة على صور ثلاث كل صورة منها هي عامل ثقة ووسيلة أمينة في تلقى المسلمين لهذا القرآن جيلاً عن جيل حتى وصل إلينا بطريق التواتر حفظاً وكتابة .

٣- جمع القرآن الكريم:

كانت الصورة الأولى من جمع القرآن الكريم هي جمع الرسول ﷺ ، وكان هذا جمعاً تنظيمياً قائماً على جمع الآيات المفردة في سورها وترتيبها وترتيب سور القرآن (٢) حسب ما أمر الله به وأوحاه إلى رسوله محمد ، فلم يلحق ﷺ بربه إلا وقد كان معلوماً لدى كل مسلم أن الآية كذا تسبقها الآية كذا وتليها الآية كذا. وكذلك رتب رسول الله ﷺ سور القرآن ، وحدد للمصحابة مكان كل سورة ، فكان يقول لهم : اجعلوا السورة كذا بعد سورة كذا ، وقرأ رسول الله ﷺ القرآن الكريم مرتبة آياته وسوره ، وقد عرفنا قبل ذلك أنه ﷺ كان يقرأ القرآن على جبريل في

(١) القيامة : ١٦-١٧ .

(٢) وهذا رأى من ثلاثة آراء أراه أرجحها (الزرقاني ، مناهل العرفان ج١ ، ص ٣٤٧) .

كل عام مرة وفي عام وفاته عرضه على جبريل مرتين ، وكان هذا بترتيب آياته وسوره ، وإن عملا كهذا هو دلالة قوية على تشيئه ﷺ في كتابة القرآن الكريم حتى نقل للمسلمين بلا زيادة أو نقص ، قال البغوي في شرح السنة:

« الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين جمعوا بين الدفتين القرآن الذي أنزله الله على رسوله من غير أن زادوا أو نقصوا منه شيئا خوفا ذهاب بعضه بذهاب حفظته ، فكتبوه كما سمعوه من رسول الله ﷺ من غير أن قدموا شيئا أو أخرجوا أو وصفوا له ترتيبا لم يأخذه من رسول الله ﷺ ، وكان رسول الله ﷺ يلقن أصحابه ويعلمهم ما نزل عليه من القرآن على الترتيب الذي هو الآن في مصاحفنا بتوقيف جبريل إياه على ذلك وإعلامه عند نزول كل آية أن هذه الآية تكتب عقب آية كذا في سورة كذا »^(١) .

ويكفي في هذه الصورة من دلالة على ثبوت القرآن وصدقه نقلا وكتابة أن هذا الجمع شاهده جميع المسلمين الذين كانوا في ذلك الوقت وطبقوه على ما كتبه وما حفظوه .

أما الصورة الثانية من الجمع فهذه كانت في عهد أبي بكر الصديق ؓ ، وذلك أنه لما توفي رسول الله ﷺ كان القرآن مفرقا في الأخشاب والعصب والأكتاف .. إلخ ، ولم يكن مجموعا في مصحف واحد فأمر الصديق ؓ بجمع الآيات ووضعها في السور مرتبة بترتيب رسول الله ﷺ لها ، وكذلك وضع السور مرتبة حسب ما فعل المصطفى عليه الصلاة والسلام .

وكان السبب في هذا أن كثيرا من صحابة الرسول الذين كانوا من حفظة القرآن قد قتلوا في معركة اليمامة التي كانت في السنة الثانية عشرة للهجرة ، وقد استشهد في هذه المعركة سبعون قارئا من الصحابة الحافظين والقارئ للقرآن الكريم ، وخوفا من ضياع القرآن بموت واستشهاد حفظته أشار عمر علي أبي بكر بجمع القرآن وكتابته ، وبعد مشاورات شرح الله صدر أبي بكر لما أشار به عمر ، فأرسل ؓ إلى زيد بن ثابت الأنصاري وكلفه بهذه المهمة الشاقة ، يقول زيد بن ثابت فيما رواه البخاري :

« أرسل إلى أبو بكر مقتل أهل اليمامة فإذا عمر بن الخطاب عنده فقال أبو بكر:

إن عمر أتاني فقال : إن القتل قد استحر - اشتد - يوم اليمامة بقراءة القرآن وإنسى أخشى أن يستحر القتل بالقراء في المواطن فيذهب كثير من القرآن ، وإنسى أرى أن تأمر بجمع القرآن فقلت لعمر كيف فعل شيئا لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ قال عمر هو والله خير ، فلم يزل يراجعني حتى شرح الله صدرى لذلك ورأيت في ذلك الذي رأى عمر ، قال زيد قال أبو بكر إنك شاب عاقل لا نتهمك وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ فتتبع القرآن أجمعه ، فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن ، قلت كيف تفعلان شيئا لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ قال هو والله خير فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدرى للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر. فتتبع القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال»^(١).

وأخرج ابن أبي داود من طريق يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب قال قدم عمر فقال: «من كان تلقى من رسول الله ﷺ شيئا من القرآن فليات به» وكانوا يكتبون ذلك في الصحف والألواح والعسب ، وكان لا يقبل من أحد شيئا حتى يشهد شهيدان ، وهذا يدل على أن زيدا كان لا يكتفى بمجرد وجدانه مكتوبا حتى يشهد به من تلقاه سماعا مع كون زيد كان يحفظ القرآن فكان يفعل ذلك مبالغة في الاحتياط^(٢).

وأم زيد المهمة التي كلفه بها خليفة رسول الله ، فجمع الآيات من هنا ومن هناك ، من هذا ومن ذاك ، واحتاط في ذلك كل الاحتياط فكان لا يأخذ آية من أحد إلا إذا شهد شاهدان بسماعهما لهذه الآية من رسول الله ﷺ .

وقد توافرت لهذا الجمع كل شواهد الصدق والثبوت والأمانة في النقل والجمع والكتابة ، فأبو بكر الصديق ﷺ لم يجمع الصحف بنفسه سرا دون أن يعلم بذلك أحد ، ولم يسند هذه المهمة لشخص عادي ليست لديه مؤهلات القيام بمثل هذا العمل الشاق ، وإنما وفق الله المسلمين في هذا الجمع حتى قام على قواعد وأسس قوية تنفي ادعاء مدع بأن القرآن قد زيد فيه أو أنقص منه ، أو أن في سنده ضعفا أو إسقاطا ، أما هذه الأسس فهي:

(١) علوم القرآن ج١ ، ص : ٥٧ / ٨٥ .

(٢) علوم القرآن ج١ ، ص : ٥٧ / ٨٥ .

١- إن الذي أشار بهذا الجمع هو عمر بن الخطاب الذي اشتهر بصلابته في الحق ، وكان لا يخاف في الحق لومة لائم ، فلو كان قد رأى في هذا الجمع شيئا مخالفا للحق لما أشار به ، ولو كان قد رآه قد تم على غير وجه الحق ما قبله أبدا .

٢- إن الذي أمر بهذا العمل هو خليفة رسول الله ﷺ الذي اختاره الرسول ليؤم الناس في الصلاة في مرض موته ﷺ ، وهو الذي قال للناس يوم تولى أمرهم لو رأيتم في اعوجاجا فقوموني ، فولله لو كان أبو بكر قد رأى في هذا العمل بعدا عن الحق وسكت عنه - وحاشا لله أن يكون ذلك من أبى بكر - لقومه الناس وعارضوه في هذا لأنه أعطاهم الحق في معارضته إن وجدوا فيه اعوجاجا .

٣- إن الذي قام بهذا الجمع كان من خيرة شباب الأنصار ، فقد كانت له مكانته في القراءة والكتابة ، والفهم والعقل ، وقد شهد العريضة الأخيرة للقرآن في ختام حياة الرسول ﷺ وكان حافظا للقرآن كله ، وكان من كتبة الوحي الذين اتتمهم الرسول على الوحي الإلهي .

٤- هذا الجمع لم يكن سرا وإنما كان أمام أعين الناس ، عرف به كل مسلم وأقر به المسلمون جميعا، وشهدوا عليه ، وباركوا هذا العمل لأنه كان خيرا .



٥- لم يكتب زيد بن ثابت بوجود الآية أو الآيات مكتوبة عند هذا أو ذلك ، وإنما كان لا يد مع هذا من وجود شاهدين يشهدان بأنهما تلقيا هذا سماعا أو أن ذلك المكتوب كتب بين يدي رسول الله ﷺ ، أخرج ابن أبي داود من طريق هشام بن عروة عن أبيه أن أبا بكر قال لعمر وزيد « اقعدا على باب المسجد فمن جاءكما بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتباه » .

واحتمال وقوع الزيادة أو النقص أو الخطأ من أصحاب هذه الصحف أمر مستبعد جدا ؛ لأن الصحابة قد شاهدوا تلاوة القرآن من النبي سنين عديدة وقد باشروا هذه التلاوة بأنفسهم ، فأى شيء يكون مخالفا لما قاله رسول الله سيكون نشازا وأمرا مستغربا ، ولم يثبت شيء من هذا أبدا .

على أن هذا ما كان يمكن حدوثه ؛ لأن الآية الواحدة تكون موجودة عند أكثر من واحد من المسلمين بحيث لا يمكن تواطؤهم على الكذب - وحاشا لله أن يكون الصحابة كاذبين - ، أضف إلى هذا أن حفظ الصحابة للقرآن في ذلك الوقت كان سدا منيعا ضد أي مخالفة لما نزل على رسول الله ﷺ من زيادة أو نقص أو تحريف أو تبديل .

وهكذا أصبح القرآن كله مكتوبا في صحائف أحيطت بكل ضمانات الثقة والتثبت ، والصدق والأمانة ، ويعد أن كان كتاب الله مفرقا عند هذا أو ذلك أصبح كتابا واحدا في صحف مجموعة عند خليفة رسول الله ، وبذلك لم يمض رسول الله إلا والقرآن كله مكتوب ومرتب آياته وسوره ، ولم يمض أبو بكر إلا والقرآن كله مجموع كلا واحدا .

أما الصورة الثالثة لجمع القرآن ، فقد قام بها الخليفة الثالث عثمان بن عفان ، وكان سبب هذا أن حذيفة بن اليمان كان يجاهد في سبيل الله مع المسلمين حين ذهبوا لفتح أذربيجان وأرمينية وإذا به يرى المسلمين مختلفين في قراءتهم للقرآن الكريم - وبعض ذلك فيه شيء من اللحن - وبعضهم يخطئ الآخر في قراءته «ووصل الأمر ببعضهم إلى حد تكفير الآخرين ، ففرغ حذيفة إلى خليفة المسلمين عثمان بن عفان وناشده أن يدرك المسلمين قبل اختلافهم على كتابهم كما اختلفت اليهود والنصارى ، فأرسل عثمان إلى أم المؤمنين حفصة بنت عمر حيث كانت عندها الصحف التي كتبت في عهد أبي بكر ، فأرسلت إليه بها ، فدفع بها عثمان إلى أربعة من صحابة رسول الله ﷺ هم : زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ،

وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام وأمرهم بنسخ هذه الصحف ، فإن اختلفوا في شيء مع زيد فليكتبه بلسان قريش ؛ لأن القرآن نزل بلغتهم ، وكان في هذا العمل العظيم دفعا لذلك التعارض والاختلاف الذي كان يظهر بين القراء بسبب قراءة واحد منهم بحرف من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن .

روى البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان وكان يغازي أهل الشام في أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق ، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة فقال لعثمان : أدرك الأمة قبل أن يختلفوا اختلاف اليهود والنصارى فأرسل إلى حفصة أن أرسلني إلينا الصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك ، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف ، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة : إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنه إنما نزل بلسانهم ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا ، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق » .

وأخرج ابن أبي داود بسند صحيح عن سويد بن غفلة قال قال علي : لا تقولوا في عثمان إلا خيرا ، فوالله ما فعل الذي فعل في المصاحف إلا على ملا منا ، قال ما تقولون في هذه القراءة ؟ فلقد بلغني أن بعضهم يقول : إن قراءتي خير من قراءتك ، وهذا يكاد يكون كفرا ، قلنا فما ترى ؟ قال : أرى أن يجمع الناس على مصحف واحد فلا تكون فرقة ولا اختلاف ، قلنا فنعم ما رأيت » .

وبهذا العمل الذي قام به عثمان رضي الله عنه تكون الفتنة قد أخذت وذلك بحسم الخلاف الذي كان دائرا بين المسلمين ، وقد تم بعون الله وتوفيقه إحاطة القرآن بالحصون العلمية والفنية التي تمنع أن يتطرق إلى هذا الكتاب العزيز شيء من الزيادة أو التحريف ، فلقد اختار عثمان لهذا العمل أربعة من حفظة القرآن وقراءه وكان على رأسهم زيد بن ثابت كاتب الوحي ومن سبقت له خبرة في كتابة القرآن وجمعه ، وكانوا مهاجرين وأنصارا .

ولقد صدقت الأمة على ما قام به عثمان ، واستوثقت له بالطاعة لا عن ضغط أو إجبار ولكن عن اقتناع لأنها رأت في هذا العمل غاية الرشد وعظيم الهداية .

وبهذا العرض يتبين للمسلم وغير المسلم أن القرآن الكريم ليس كالكتب السابقة ؛ وذلك لأنه الكتاب الوحيد الذي تحقق له من قواعد الصدق والتوثيق والصلة في السند ما لم يتحقق لكتاب سماوي آخر فهو:

١- قد كتب في عهد الرسول ﷺ ورتبت آياته وسوره ، ولحق رسول الله بالرفيق الأعلى في العام الحادي عشر للهجرة والقرآن الكريم كله مكتوب في السطور محفوظ في الصدور .

٢- وقام أبو بكر الصديق بجمع القرآن في صحف مجتمعة في كل واحد ، ولم يلحق ﷺ بربه في العام الثالث عشر للهجرة إلا والقرآن كله مجموع في دار الخلافة لا نقص فيه ولا زيادة به .

٣- ولم يتته العام الخامس والعشرون للهجرة إلا والقرآن قد كتب بين دفتين بلغة واحدة هي لغة قريش ، وأرسلت منه نسخ إلى عواصم الأمصار الإسلامية كمكة والشام والبصرة والكوفة ومصر والبحرين واليمن والمدينة ... إلخ .

٤- وقد أجمع المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها ، قديما وحديثا ، على صحة ما قام به أبو بكر وعثمان ، وتلقوه بالرضا والقبول .

٥- وقد نقل إلينا هذا القرآن منذ عهد الصحابة حتى يومنا هذا بطريق التواتر حفظا وكتابة .

هذا هو سند القرآن الكريم لا يضاويه ولا يدانيه بل ولا يقارنه سند آخر ، وكان حقا قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢٠١﴾ زَلَّ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴿٢٠٢﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّئًا عَلَيْهِ ﴾ (٢) .

هذا هو الطريق الذي جاء منه القرآن الكريم الذي نزل وحيا إلهيا على محمد بن عبد الله ﷺ «فما وجدنا في اعترافات صاحبه ، ولا في حياته الخلقية ، ولا في وسائله العلمية ولا في سائر الظروف العامة أو الخاصة التي ظهر فيها القرآن إلا شواهد ناطقة بأن هذا القرآن ليس له على ظهر الأرض أب تنسبه إليه من دون الله» (٣) .

(١) آل عمران : ٣ / ٢ .

(٢) المائدة / ٥٠ .

(٣) د . محمد عبد الله دراز ، النبا العظيم ، ج ١ ، ص ٦٨ .

القرآن نصا ومنتنا

الفصل الأول : صورة توضيحية عن النصوص القرآنية .

الفصل الثاني : شبهات وردود .

الفصل الثالث : القرآن حجة على جميع الناس .

الفصل الرابع : اعتراف القرآن بالتوراة والإنجيل

وعلاقة هذا بتحريفهما

الفصل الأول

صورة توضيحية عن النصوص القرآنية

١- اشتغال القرآن على قضايا الدين والدنيا :

بعد الحديث عن القرآن الكريم سندًا ونقلًا ، وبعد أن تبين لنا أنه قوى لسند ولا يدانيه في هذا الطريق كتاب آخر ، نأتي إلى الحديث عن هذا الكتاب الكريم نصًا ومتنا ، وفي هذا المجال أرى أن الحديث عن كلمات القرآن وآياته ينظمه وأسلوبه أمر لن ينتهي .

ويكفي دلالة على صدق ما أقول ، وصدق هذا القرآن وعلو قدره وأسلوبه وفكره ، وترابط كلماته وآياته أنه منذ ألف وأربعمائة عام والعلماء ينهلون من بحاره وهو لا تنتهي ذخائره ، ولا تنفذ خيراته وبركاته ، وسبطل المرجع الأصيل لكل كاتب ولكل عالم .

فأهل اللغة: نحروا وصرفا ، بلاغة وأدبا ، لم يجدوا أصدق ولا أقوم لسانا منه ، ولا أحكم ولا أبلغ من أسلوبه ولغته ؛ لذلك استقوا منه مادتهم ، ولم يروا فيه خلا أو اضطرابا .

وأهل الكلام: على اختلاف منازعهم وجدوا فيه بغيتهم ، وأصلوا قواعدهم استنادا عليه ، واستمدوا أدلتهم وبراهينهم منه ، ولم يجدوا فيه تناقضا أو تضاربا .

وفقهاء الشريعة: وجدوه أعلى مصدر شرعي وأصدق ، فأخذوا منه أحكامهم ، وتأصيلاتهم وتفريعاتهم ، ولم يجدوا فيه نقصا ، ولم يجدوا في أنفسهم حاجة إلى غيره^(١) ؛ لأنه كفاهم بكثرة أحكامه وعظيم اتفاقها مع طبيعة الإنسان جسدا وروحا ومع طول الزمن لم يجدوا فيه خلا ولا بدعا من القول ؛ وذلك لأنه رضى العلي القدير ، وكتابه الذي ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾^(٢) .

إننا حين نقرأ هذا الكتاب الحكيم سنجد أنه قد تعددت أغراضه وكثرت اتجاهاته فقيه :

(١) أي من الكتب السماوية الأخرى .

(٢) فصلت / ٤٢ .

العقيدة: قضية الألوهية ، والوحي والرسالة والبعث والجزاء والكتب المنزلة والحساب والصحف والجنة والنار ودلائل النبوات وأخبار الأنبياء وقصصهم ، والساعة وأهوالها .

الشرعية: أحكام الصلاة والصيام والزكاة والحج ، وأحكام القتال ، وأحكام الحدود ، والبيوع والتقاضى ... الخ .

وفيه الجهاد: النواحي العسكرية والحربية ، مقاتلة الأعداء ، السلم والحرب ، المعاهدات الدولية ، الأسرى ، الغنائم .

وفيه الأسرة: بناؤها على أسس صالحة ، مشاكلها وعلاجها ، وقواعد بناء البيت المسلم ، الآداب الاجتماعية : آداب السر والحجاب ، قواعد الصلة بين المرأة وزوجها وأبنائها ... الخ .

وفيه الآداب والأخلاق ، وبناء الشخص المسلم ، والشخصية الإسلامية ، وآداب السلوك الفردي والجماعي .

وفيه الحديث الشيق عن الكون ، السماوات والأرض ، البحار والجبال ، السهول والوديان ، الماء والنبات ، الكواكب والنجوم .

نعم ، لقد اشتمل القرآن الكريم على كل هذا ، بل وأكثر من ذلك ، وكل موضوع من هذه الموضوعات قد تكرر في أكثر من سورة لكن القارئ لا يشعر بتضارب هذا القرآن ولا تناقضه ، ولا يحس بإطناب في موقف كان يقتضي الإيجاز ، ولا بإيجاز في موقف كان يقتضي الإطناب .

إنك تقرأ القرآن من أوله إلى آخره فلا تقرع أذنك نغمة نشاز ، ولا تحس بأسلوب شاذ ولا بمعنى غير متفق مع حاجات الجسم ومتطلبات الروح ، بل ترى الجرس الحسن ، والأسلوب البديع ، وهذا الترابط الجسدي والنفسي مع آيات وكلمات القرآن الكريم .

إنك تقرأ أكبر سورة منه وهي سورة البقرة ذات الآيات المائتين والستة والثمانين فتراها تتحدث عن الأحكام العقائدية والتشريعية والعبادات والمعاملات والأخلاق والآداب والسلم والحرب والزواج والطلاق ، تتحدث عن هذا كله فلا ترى فيها - مع كثرة آياتها وأغراضها - من تناقض ولا تضارب ، ولا تلمس فيها نقصاً ولا

زيادة بسبب صنعة بشرية لأن الله قد تكفل بحفظ هذا القرآن الكريم فقال سبحانه :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ سَاهِبُونَ ﴾^(١)

٢- من مميزات النصوص القرآنية :

لقد تميز القرآن الكريم في كلماته وآياته ونصوصه بعدة مميزات جعلته كتابا صالحا لكل زمان ومكان ، نافعا لكل إنسان ، ولكل طبقة من الناس ، ولكل جماعة من المجتمع ، من هذه المميزات ما يلي :

١- إن اقتصد في لفظه فليس معنى هذا حدوث خلل في المعنى ترتبا على ذلك الاقتصاد اللفظي ، وإنما ترى المعنى وافيا ومكتملا ومحققا الهدف المراد منه ، ففي قوله تعالى : ﴿ آيَاتُ الْكُتُبِ وَالْأَمْرِ ﴾^(٢) نجد أن القرآن الكريم قد جمع في هاتين الكلمتين جميع الأشياء والشئون على وجه الاستقصاء ، فقد جمعت كل المخلوقات على اختلاف أصنافها وأنواعها ، وردت وجودها إلى الله تعالى ، وكذلك جمعت كل أنواع التصريف الإلهي وتبدير أمور الكون كله في هاتين الكلمتين ، ولذلك روى عن رسول الله ﷺ « من زعم أن الله جعل للعباد من الأمر شيئا فقد كفر بما أنزل الله على أنبيائه » وروى عن عمر قوله «من بقى له شيء فليطلبه » إنهما كلمتان لكنهما كانتا وافيتين بالمعنى على خير ما يكون .

٢- ومن أصدق ما يدل على عظمة القرآن الكريم أنه يخاطب جميع الطبقات من البشر ، فيخاطب العامة والخاصة ، العلماء والجهلاء ، الأذكى والأغبياء الرؤساء والمرءوسين ، كل واحد من هذه النوعيات يرد مورد القرآن فينهل منه فلا يصدر إلا وقد ارتوى من هذا الوحي الإلهي العظيم .

إنه مع هذا التضاد الواضح بين هذه الطبقات البشرية فإنك تجد القرآن قد وفى بغرض كل جماعة وأشبع رغبة كل طبقة ، ومع هذا وذلك لا تجد في حديث القرآن عن هذه النوعيات من الناس خلا أو خطأ ، أو تضاربا أو تناقضا .

إن العالم حين يقرأ القرآن يستفيد منه ، ويقرؤه الجاهل فينتفع به ، يقرؤه الرئيس فيصلحه رياضة وحكما ، ويقرؤه المرءوس فيهديه إلى طريق الأمان والسلامة ، قال

(١) الحجر / ٩ .

(٢) الأعراف / ٥٤ .

سبحانه:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اطِّعُوا اللَّهَ وَاطِّعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾^(١)

٣- والقرآن الكريم يخاطب الإنسان جسدا وروحا ، عقلاً وعاطفة ، فهو يلي حاجة الجسم بما لا يضر الروح

﴿ يَبْتِهَىٰ مَادَمَ حُدُوا زِينَتَكَ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾^(٢)

ويلي حاجة الروح بما لا يهضم حق الجسد ..

﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُقْسِدِينَ ﴾^(٣)

كذلك يخاطب القرآن الكريم عقل الإنسان وعاطفته ووجدانه ، فلا يستعمل أسلوباً عقلياً جافاً وبعيداً كإساليب الفلسفة التي تعذب النفس وتقلق الضمير وتشتت الفكر وتوتر الأعصاب ، تاركة العاطفة وراء ظهره ، ولا يستعمل أسلوب العاطفة المجرد من العقل كإساليب الشعراء التي تزول بمجرد صحوة العقل واستيقاظ الفكر ، وإنما يجمع في طياته ، بل في الآية الواحدة بين خطاب العقل والعاطفة دون تعارض أو تناقض ، ودون خطأ أو خلل ، وانظر إلى قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ أَلْحَقُوا بِأَلْحَقِهِ وَالْعَبْدَ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَىٰ بِالْأَنْثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعُهُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءُهُ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ مِّنْ أَعْدَتِكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فَذَلِكَ عَذَابُ الْبِيسِ ﴾^(٤)

فهذه الآية قد تحدثت عن حكم شرعي ، وحد من حدود الله ، إنه القصاص

(١) النساء / ٥٩ .

(٢) الأعراف / ٣١ .

(٣) القصص / ٧٧ .

(٤) البقرة / ١٧٨ .

وهذا خطاب العقل ؛ لكنها تضمنت مع قضية القصاص قضية العفو وأخوة الدين وإسداء المعروف ، والأداء بإحسان ، ورحمة الله ، وتخفيفه عن الناس ، وكل هذا خطاب العاطفة لترقيق قلب ولي القصاص فيعفو ويرحم ، وترقيق العاطفة عند القاتل فيحسن الأداء ويراعي المعروف ، « ففي أي كتاب من كتب التشريع تجد مثل هذه الروح ؟ بل في أي لسان تجد هذا المزاج العجيب ؟ بالله لو أن أحدا حاول أن يجمع في بيانه بين هذين الطرفين ففرق همه ووزع أجزاء نفسه لجاء بالأضداد المتنافرة وخرج بثوب بيانه رقعا ممزقة »^(١).

٤- ومن المميزات التي يتفرد بها القرآن الكريم أن الآية الواحدة منه إذا قرأتها مرات متعددة فإنك لا تشعر بملل ولا ضجر ، ولا تحس بأنك تحرث في البحر ، وإنما في كل مرة تكشف حكما أو قضية أو فكرة جديدة ، إنك تقرأ الآية فترى لها وجوها متعددة ، وجمالا متجددا ، وأحكاما كلها صحيحة ، والقرآن في هذا كله لا تناقض في أفكاره ولا خلل في بنيانه ، ولا تضارب في أحكامه لأنه كتاب أحكمت آياته من لدن حكيم خبير .

وانظر إلى قوله تعالى :

﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(٢)

فمع صغر هذه الآية ، وقلة ألفاظها نراها قد اشتملت على معاني متعددة وأحكام مختلفة ، وهي في هذا كله لا تضارب فيها ولا تناقض ، « إنك لو قلت في معناها : إنه سبحانه يرزق من يشاء بغير محاسب ومحاسبه ولا سائل يسأله لماذا ييسط الرزق لهؤلاء ويقدره على هؤلاء ، أصبت ، ولو قلت : إنه يرزق بغير تقدير ولا محاسبة لنفسه عند الإنفاق خوف النفاد ، أصبت ، ولو قلت : إنه يرزق من يشاء من حيث لا يتنظر ولا يحتسب ، أصبت ، ولو قلت : إنه يرزقه بغير معاتبه ومناقشة له على عمله ، أصبت ، ولو قلت : يرزقه رزقا كثيرا لا يدخل تحت حصر وحساب أصبت .

فعلى الأول يكون الكلام تقريرا لقاعدة الأرزاق في الدنيا وأن نظامها لا يجري

(١) د. محمد عبد الله دراز النبا العظيم ، ج ١ ، ص ١١٠ .

(٢) البقرة / ٢١٢ .

على حسب ما عند المرزوق من استحقاق بعلمه أو عمله بل تجري وفقاً لمشيئته وحكمته سبحانه في الإبتلاء ، وفي ذلك ما فيه من التسلية لفقراء المؤمنين ، ومن الهضم لنفوس المغرورين من المترفين .

وعلى الثاني يكون تنبيهاً على سعة خزائنه ويسطة يده جل شأنه .

وعلى الثالث يكون تلويحاً للمؤمنين بما سيفتح الله لهم من أبواب النصر والظفر حتى يبدل عسرهم من حيث لا يظنون .

وعلى الرابع والخامس وعداً للصلحين إما بدخولهم الجنة بغير حساب ، وإما بمضاعفة أجورهم أضعافاً كثيرة لا يحصرها العدد^(١) .

٥- ومن عظمة القرآن الكريم أنه مع طول زمن نزوله^(٢) واختلاف الأماكن التي نزل بها لا تمجد فيه تضاربا بين أوله ونزولا وآخره مجيئا ، ولا ترى تناقضا بين ما نزل بمكة وما نزل بالمدينة ، وإنما تمجد التناسق والترابط والتلازم بين آياته كلها وعلوه أسلوبها وبلاغتها في مكه ومدنيه .

إنك تقر الآية المكية في سورة مدنية ، والآية المدنية في سورة مكية فلا ترى كأنك انتقلت من الوادي إلى الصحراء ، ولا المحدث من فوق الجبل إلى أسفل الوادي ، أبدا لا ترى هذا في القرآن الكريم ، وقرأ إن شئت قوله تعالى :

﴿ وَإِنْ كَانَتْ دُوْعُ عُسْرٍ فَانظُرْ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنْعَمُوا يَوْمَ تُرْجَعُونَ فَبِعِزَّتِ اللَّهِ لَأَكْفُرَنَّ كُلٌّ فَتَبِينَ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَعْتُمْ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ فَعَلَىٰ كُفْرِكُمْ فَمَا تَكْفُرُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾^(٣)

هذه ثلاث آيات ، الأولى والأخيرة مدنيتان ، والوسط مكية لأنها نزلت بمكة ، فهل تشعر بفارق بين الآيات يؤدي إلى التضارب والتناقض ؟ لا والله لا يشعر الإنسان بهذا ، بل على العكس من ذلك سيجد القارئ لهذه الآيات أن بينها ترابطا وتلازما ؛ لأن القضية كلها متعلقة بالربا والدين ، فأكل الربا والدائن يحتاج إلى

(١) د . دراز ، النبا العظيم ج ١ ، ص ١١١ .

(٢) بالنسبة للكاتب السابقة . التي نزل كل واحد منها جملة واحدة .

(٣) البقرة / ٢٨٠-٢٨٢ .

تذكير الله له باليوم الآخر ورجوعه إلى الله ومحاسبته على ما فعل ، والدائن والمدين يحتاجان إلى التذكير باليوم الآخر حتى لا يتعنت الدائن ولا يماطل المدين .

ويعد :

فهذه فكرة مبسطة عن آيات القرآن الكريم وإحكامه لفظاً ومعنى ، وترابط معانيه وتلازمها ، أردت بها إثبات أن هذا الكتاب الحكيم قد حفظه الله من الخلل والخطأ ، والتضارب والتناقض ، وأنزله كتاباً في غاية الصدق والإحكام والإتقان ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾^(١)

ومع صمود القرآن الكريم هذه السنين كلها أمام تيارات الأعداء فإنه ما زال شامخاً عالي الهامة ، قوي التعبير ، رصين الأسلوب ، لا تنتهي فوائده ، ولا تضمر منافعه ، يعلن تحديه للجميع ، إنسا وجنا ، مؤمنا وكافرا ، وجوديا وشيوعيا ، ماديا ومثاليا .

ولقد تكتل أعداء الإسلام وتكاتفوا في سبيل النيل من هذا القرآن العظيم ، وأثاروا الشبهات حوله وحول من نزل عليه ، ولكنهم باءوا بالفشل ، وارتدوا على أعقابهم صاغرين ، فماذا قال هؤلاء ؟ وماذا رد عليهم علماء المسلمين ؟ ذلك هو موضوعنا التالي .



الفصل الثاني

شبهات وردود^(١) :

في عهد نزول الوحي أثار الكفار بعض الشبهات حول القرآن الكريم ، واليوم نرى بعض المستشرقين يرددون هذه الشبهات القديمة ولكن بأسلوب العصر الذي نعيش فيه ، فقديمًا قال الكفار :

١- إن محمداً قد اختلق هذا القرآن وافتراه من عند نفسه ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾^(٢) وقد تكفل الله بالإجابة عن هذا السؤال ، وكفى محمداً مئونة الرد عليهم فقال سبحانه رداً على شبهتهم هذه :

﴿ قُلْ قَاتُوا بِمِثْرِ سُورٍ مِّثْلِهِ مُقَرَّبَتْ وَأَدْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾^(٣) .

فحيث ادعيتم أن محمداً هو الذي اختلق هذا القرآن فهيا شمروا عن سواعديكم وادعوا أنصاركم وأعوانكم وأتوا بعشر سور مثل القرآن فصاحة وبلاغة ، فإن استطعتم ذلك كان هذا القرآن مخلقاً ، أما إذا لم تستطيعوا ذلك فاعلموا أن هذا القرآن أنزل من عند الله ، وأن محمداً لم يخلقه من عنده ، وحيث إنهم لم يستطيعوا ذلك - وإلا كان قد اشتهر هذا عنهم وسجله التاريخ - كان هذا القرآن وحياً إلهياً وليس من صنع محمد ﷺ .

ولقد جاءت ردود أخرى في القرآن الكريم على دعوى الكفار أن محمداً هو الذي كتب هذا القرآن الكريم .

ففي سورة آل عمران جاء قوله تعالى :

﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَقْلَنَهُمْ أَنَّهُمْ يَكْتُمُونَ

(١) سأقتصر على بعض الشبهات منعا للإطالة واكتفاء بما قام به العلماء من ردود جيدة وموفقة على ما أثاره المستشرقون من شبهات حول القرآن الكريم .

(٢) هود / ١٣ .

(٣) هود / ١٣ .

مَرِيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤١﴾ .

والرد هنا : أنه لو كان القرآن مختلفا من عند محمد فكيف استطاع معرفة هذا الغيب البعيد ؟ كيف استطاع معرفة أخبار زكريا ومريم ؟ وهل كان محمد مع هؤلاء الناس وقت افتراعهم على كفالة مريم ؟ ووقت اختصاصهم في كفالتها ؟ الكل يعلم أن محمدا لم يكن موجودا في هذا الزمن الماضي البعيد فلا سبيل إلى معرفة هذا الغيب إلا عن طريق الوحي وهو هذا القرآن .

وفي سورة يوسف قال تعالى :

﴿ تَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٤٢﴾ .

ومضمون هذا الرد : كيف تدعون أن محمدا هو الذي اختلق القرآن من عند نفسه في حين أن به قصص الأنبياء السابقين والأمم الماضية ؟ وهذه الأخبار ما كانت معروفة لدى محمد قبل إحياء القرآن إليه ولم تخاطر بباله ولم يسمعها من أحد لأنه كان أميا لا يكتب ، فوجود هذه الأخبار الماضية دليل على أن هذا القرآن وحي من عند الله وليس من اختلاق محمد بن عبد الله .

وفي سورة القصص يقول سبحانه :

﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْفُرْقَانِ إِذْ فَضَّلْنَا بَيْنَ الْأَمْرِ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٣﴾
وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلُ عَلَيْهِمُ الْأُمُورُ وَمَا كُنْتَ تَأْوِيلًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ
مَا كُنَّا نَكْتُبُكَ كَتَبًا مُرْسِلِينَ ﴿٤٤﴾ .^(١)

فالله سبحانه وتعالى يقول للكفار وكل من ادعى أن محمدا اختلق القرآن من عند نفسه ، كيف تدعون هذا وهو قد أخبركم بخبر موسى ومناجاته لربه وإسناد الرسالة إليه ، وقصة أهل مدين ؟ ولا يمكن لبشر أن يعرف هذه الأخبار الماضية إلا أحد اثنين : من كان مشاهدا أو قارنا لها ، أو من أوحى الله بها إليه ، وحيث إن محمدا لم يكن بجانب الوادي ولم يكن مشاهدا مناجاة موسى لربه ، وكذلك لم يكن قارنا ولا كاتباً لم يكن هناك من سبيل إلى معرفته بهذه الأخبار إلا عن طريق الوحي الإلهي .

٢- واستنادا على عقيدة الكفار في أن القرآن من اختلاق محمد وأن بيده التصرف فيه كيف يشاء ، طلب هؤلاء الناس من رسول الله ﷺ إما أن يأتيهم بقرآن غير هذا القرآن ليس فيه سب آلهتهم أو تسفيه عقولهم ، أو يبدل في هذا القرآن الذي معه فيجعل مكان آيات العذاب آيات الرحمة ، ومكان سب آلهتهم مدحها ، وقد عرض القرآن هذا السؤال من قريش فقال تعالى :

﴿ وَإِذَا تَنَزَّلَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتَىٰ بِمِثْرَةٍ مِّثْرٍ هَذَا أَزْبَدْتُمْ ﴿١١﴾ وقد رد الله عليهم بقوله سبحانه :

﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَائِي أَنفُسِي إِنَّ أُنْتُمْ إِلَّا مَا بُرِحْتُمْ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُمْ رَأْيَ عَذَابٍ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٢﴾ ، فلا يصح ولا يجوز لمحمد أن يغير شيئا من القرآن ؛ لأنه ليس له حق التصرف فيه والتغيير والتبديل ، والذي له هذا الحق إنما هو الله سبحانه وتعالى الذي أوحى إليه هذا القرآن وبلغه هذه الرسالة .

٣- وهذه فرية أخرى نسجها الكفار ونسبوها إلى رسول الله ﷺ فقالوا : إن محمدا قد اختلق هذا القرآن بمعونة أهل الكتاب له في ذلك :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَيْنَاهُ وَأَعَانَهُ طَيْفُ قَوْمٍ مَّخْرُوجِينَ ﴿٣١﴾

فرد عليهم المولى عز وجل بقوله : ﴿ فَقَدْ جَاءَ ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٣٢﴾

أي هذا الذي يدعيه الكفار كذب وافتراء ، نعم إنه كذب وافتراء ، فهل يعقل أن هذا القرآن الذي أثبت الكفر لأهل الكتاب يكون قد صنعه محمد بمعاونتهم ؟ وهل يعقل أن يكون القرآن الذي دعا إلى الوحدة الحاخاصة قد اختلقه محمد بمساعدة أهل الكتاب الذين قالوا إن لله ابنا ؟

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهَوْنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَسَاءَ اللَّهُمَّ أَنْ تَكُونَ

(١) يونس / ١٥ .

(٢) يونس / ١٥ .

(٣) الفرقان / ٤ .

يُؤَفِّكُونَ ﴿١١﴾

وهل يعقل أن يتلقن العربي الفصح لغة فصيحة مثل هذا القرآن من أهل الكتاب الأعاجم ؟

٤- أما في هذه المرة فقد ادعوا دعوى كاذبة أخرى هي أن محمدًا سمع أساطير الأولين وخرافاتهم وقصصهم فطلب منهم أن ينسخوا له نسخًا منها حتى تقرأ عليه ليلا ونهارا فيحفظها ويعيها وعيا كاملا :

﴿ وَقَالُوا اسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ أَسْكَتَبَهَا فِيهِ نَمَلٌ عَلَيْهِ بُعْرَةٌ وَأَسْمِيلًا ﴾ (١١)

وقد رد الله عليهم في هذه الشبهة بقوله تعالى:

﴿ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا رَحِيمًا ﴾ (١٢)

وهل دعوة محمد الناس إلى ترك عبادة الحجر الذي لا يضر ولا ينفع هي من أساطير الأولين ؟ إن الأولين كانوا يعبدون الأصنام ويقدسونها فهل يكتبون أسطورة محمد مما عندهم فيها أن الأوثان رجس من عمل الشيطان ؟ إنه لمن تضارب القول وتناقض المنطق أن يكون مقدس الأصنام وعابدها داعيا إلى تحجيرها وتسفيها وتكفير عابديها .

٥- ومن الدعاوي الكاذبة التي أشاعها الكفار ضد القرآن الكريم أن محمدًا تعلم هذا القرآن من أحد الناس الذين يبيعون بجوار الصفا . ويقصدون بهذا رجلا أعجميا كان يعيش بينهم ، وكان غلاما لبعض بطون قريش ، لقد أخبر الله المسلمين بهذه المقالة فقال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ صَلَّمَ اللَّهُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ﴾ (١٣)

ثم رد الله عليهم ردا علميا مقنعا وذلك قوله تعالى :

﴿ لِكَاثُ الْأَنبِيَاءِ يَلْحَدُونَ إِلَيْهِ أَعْجِبِينَ وَهَذَا لِسَانُ عَرَبٍ مُبِينٌ ﴾

(١) التوبة / ٣٠ .

(٢) الفرقان / ٥ .

(٣) الفرقان / ٦ .

(٤) النحل / ١٠٣ .

إن هذا الذي تقولون إنه علم عمدا القرآن رجل أعجمي بعيد عن العربية الفصحى فكيف يستطيع أن يأتي بهذا القرآن البليغ الذي تحداكم به فلم تستطيعوا -- وأنتم أفصح الناس وأبلغهم -- أن تأتوا بمثل أقصر سورة منه؟ ثم إذا كان هذا الأعجمي يعلم عمدا القرآن وقد تحداكم به فلم لم تستعينوا بهذا الأعجمي كي يأتيكم بمثل هذا القرآن فتردون على تحدي عمدا لكم بهذا الكتاب الذي جاءكم به؟

٦- أما هذه الشبهة فمراد أصحابها إثبات النقص في القرآن الكريم عن طريق النسيان أو الحذف أو الضياع ، فاما النسيان فذلك استنادا على قول الله تعالى :

﴿ مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا ﴾^(١).

وعلى قوله تعالى: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَى ۗ (٦) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾^(٢).

وعلى قول الرسول ﷺ حين سمع رجلا يقرأ في المسجد «رحم الله لقد أذكرني آية كنت أنسيها» .

وأما النقص بطريق الحذف فذلك استنادا على أن بعض الصحابة حذفوا بعض آيات القرآن رأوا في حذفها مصلحة ، وذلك كحذف على آية المتعة ، وكان بضرب من يقرؤها ، واستنادا على دعوى غلاة الشيعة بأن الخلفاء الثلاثة الأول قد أسقطوا بعض آيات القرآن وسوره لما فيها من دلالة على الولاية والإمامة حتى إن ما حذفوه قريب من ضعف القرآن الآن .

وأما الحذف عن طريق الضياع فذلك لأن القرآن كان مكتوبا على الأخشاب والعظام والعصب ، وقد ضاع العظم فضاعت الآيات بضياعه .

والجواب عن هذه الأمور باختصار:

أن المقصود بالآية الأولى : أن الإنساء واقع بأمر الله تعالى؛ وذلك لأن الحكمة والمصلحة تقتضي ذلك ، فهو سبحانه وتعالى إذا أنسى رسوله آية فإنما يعطيه غيرها مثلها أو أفضل منها في النفع والثواب ، وليس المقصود أن الله كان يعطي القرآن

(١) البقرة / ١٠٦ .

(٢) الأعلى / ٦ ، ٧ .

لمحمد فينساه لأن هذا يتعارض مع الآية الثانية التي معنا وهي قوله تعالى: ﴿سَنُقَرِّئُكَ فَلَا تَنسَى﴾ (١) «إِلَّا مَا سَأَلَ اللَّهُ» .

فهذا وعد من الله بعدم نسيان رسول الله لشيء من القرآن الكريم إلا إذا أراد سبحانه ذلك ، وحيث أن يعجزه تعالى عن هذا أحد ، فالاستثناء في الآية «إلا ما شاء الله» للتنبية فقط على أن شيئا لا يخرج عن إرادة الله وقدرته ، وأن عدم نسيان رسول الله ﷺ لشيء من القرآن الكريم على التأيد إنما هو كرم إلهي وليس بأمر واجب عليه تعالى : ويؤيد هذا ويقويه قوله تعالى :

﴿الْأَفْطَلُ الْكَلْبِيُّ لِلْأَفْطَلِ الْبُرُوقِ﴾ (١)

فهذه الآية تجعل المشيئة «إلا ما شاء الله» غير واقعة حيث تكفل الله بجمع القرآن وإقراء الرسول إياه وأمنه من النسيان .

وأما حديث رحم الله فلانا «فهذا نسيان لشيء حفظه الرسول وبلغه أصحابه فحفظوه وكبوه ، ونسيان الرسول ﷺ لها بعد ذلك ليس معناه ضياع آيات القرآن الكريم لأن ما بلغه الرسول للمسلمين بلغ حفظه وكتابته مبلغ التواتر .

وقد يقصد بهذا النسيان غيابها عن الذاكرة أحيانا وليس على سبيل الدوام ، أو أن المقصود بالنسيان هنا نسيان الحكم المترتب عليها دون النص واللفظ ، فكثيرا ما يعرض للإنسان مثل ذلك كما قال عمر في قوله تعالى :

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ الآية ، حين سمع هذه الآية من أبي بكر ، والله لكأنني أسمعها لأول مرة فلعل معنى النسيان الوارد في قول الرسول ﷺ هو من هذا النوع .

وأما النقص بطريق الحذف استنادا على آية المتعة فإن هذه الآية وغيرها مما يقال إنه حذف من القرآن لم تثبت قرآنيته حتى يقال إنه من القرآن وحذف (٢) ، ومن يدعي ذلك فعليه بالدليل الذي يقول أن آية المتعة - وأمثالها - من القرآن الكريم . وأنها قد نقلت بطريق التواتر كبقية القرآن وحصل العلم بصحتها وصحة نقلها .

(١) القيامة / ١٧ .

(٢) الزرقاني ، مناهل العرفان في علوم القرآن ، ج ١ ، ص ٢٦٤ .

وأما ادعاءات غلاة الشيعة ، فهذه اتهامات لا دليل عليها ولا سند لها وإنما هي من دسائس أعداء الإسلام وتكفل بترويجها بعض من يتسبون إلى الإسلام اسماً فقط ، والذي يدل على أنها دسائس أن بعض علماء الشيعة كالطبرسي صاحب مجمع البيان ، قد تبرأ من هذا الشطط في القول ونسبه إلى غلاة منحرفين في تفكيرهم فقال :

«أما الزيادة فيه - أي القرآن - فمجمع على بطلانها ، وأما النقصان فقد روى عن قوم من أصحابنا وقوم من الخشوية ، والصحيح خلافه وهو الذي نصره المرتضى واستوفى الكلام فيه غاية الاستيفاء»^(١) ، وقال الطبرسي أيضاً : «أما الزيادة في القرآن فمجمع على بطلانها ، وأما النقصان فهو أشد استحالة»^(٢).

والإمام على ذاته كان حاضراً جمع القرآن في عهد أبي بكر وعثمان ولم يثبت اعتراضه على هذا ، بل أكثر من ذلك أنه استحسّن ما قام به أبو بكر وعثمان فقال ﷺ : «أعظم الناس أجراً في المصاحف أبو بكر ، رحمة الله على أبي بكر هو أول من جمع كتاب الله» وقوله بشأن ما فعله عثمان «لو كنت الوالي وقت عثمان لفعلت في المصاحف مثل الذي فعل»^(٣) فكيف يكون هذا الثناء من على إذا كان أبو بكر قد أنقص من القرآن شيئاً ؟ وكيف يتمنى على القيام بالعمل الذي قام به عثمان إذا كان قد جار على كتاب الله ونقص منه ؟

على أن الخلافة قد انتقلت إلى علي بعد عثمان ، فلو كان قد حدث نقص في القرآن الكريم لأعلن ذلك على الملأ ، ولقام بوضع الأمور في نصابها وإرجاع الآيات والسور إلى أماكنها ؟

وأما النقص في القرآن عن طريق ضياع العظم الذي كان القرآن مكتوباً عليه فمردود عليه بأن هذه العظام لم تكن هي النسخة الوحيدة التي فيها الآيات المدعى ضياعها ، فلقد كان هناك كثير من الصحابة كل واحد منهم عنده نسخة مما ينزل من القرآن الكريم ، أضف إلى هذا حفظ الصحابة للقرآن الكريم مما لا يمكن معه ضياع القرآن بضياع بعض العظام .

(١) السابق ، ج ١ ، ص ٢٧٥ .

(٢) الزرقاني ، مناهل العرفان ، ج ١ ، ص ٢٧٥ .

(٣) الفياضة / ١٧ .

٧- وإذا كانت هذه شبهات تدعى النقص في القرآن الكريم ، فهناك شبهة أخرى تزعم أن في القرآن زيادة عما نزل به جبريل على رسول الله ﷺ ، واستند هذا الفريق على ما روى من « أن ابن مسعود أنكر أن تكون الفاتحة والمعوذتان من القرآن الكريم » .

والجواب على هذا: أن مثل هذا الادعاء افتراء على ابن مسعود ، وكذب لا أساس له من الصحة ، إذ قد صح عن ابن مسعود قراءة عاصم وفيها المعوذتان فحين علم بذلك وتم التواتر وانعقد إجماع المسلمين على قرآنيتهما والفاتحة كان أول مؤمن بذلك .

وعموماً، فإن المسلمين أجمعوا على أن الفاتحة والمعوذتين من القرآن فلا يضر هذا الإجماع مخالفة ابن مسعود له^(١) .

٨- ومن أتفه الشبه التي يلقيها أعداء الإسلام دعواهم الكاذبة أن عمدا كانت تتابه حالة صرع ، أو أنه كانت تتابه حالات مرضية نفسية ، والوحي نتاج هذه الحالات المرضية والصرع الذي كان يأتي محمداً .

وما أكذب هذه الدعوى وأحقرها ، إذ كيف يكون مصروعاً أو مريضاً نفسياً ويأتي بهذا الكتاب الذي احتار فيه العقلاء والأصحاء ، بل أعقل العقلاء ؟ كيف يكون بهذه الحالات المرضية ويأتي بهذا الكتاب الذي صلحت به نفوس كثيرة ؟

لقد أصلح القرآن نفوساً جشعة ، وأخرى حاقدة ، ولقد حرر العبيد ، وطهر المجتمع من الربا ، وقضى على شرب الخمر ولعب المسر ، فهل يصدق عاقل أن هذا الكتاب العظيم ألفه - ألفاظاً وأفكاراً - رجل مصروع ؟ وهل يمكن أن يكون القرآن بتشريعاته العالية الرفيعة وقواعد الحكم التي اشتمل عليها وأسس الحرب والعلاقات الدولية التي تضمنها ، هل يمكن أن يكون هذا الكتاب من صنع رجل مريض نفسياً ؟ إنه التخبط خبط عشواء ، وإنه الجنون بعينه الذي أصاب عقول أعداء الإسلام حين اكتسحهم القرآن بنوره وتعاليمه ، وإلا فليذكروا لنا حالة مرضية معينة ، وليسألوا التاريخ وليبحثوا فيه ، وحيث سيعودون صفر اليدين ؛ لأن محمداً لم يكن في يوم من الأيام مصروعاً ولم يكن مريضاً مرضاً نفسياً .

(١) السابق ج١ ، ص ٢٦٨ / ٢٦٩ .

الفصل الثالث

القرآن حجة على جميع الناس

القرآن الكريم هو المعجزة الكبرى الباقية ببقاء الدهر ، فإذا كانت قد انتهت معجزات الأنبياء السابقين ولم يعد لها أثر أبدا ، فإن معجزة القرآن ما زالت باقية حتى عصرنا الحاضر وستبقى إلى ما شاء الله معجزة باقية تتحدى جميع الناس أن يأتوا بمثل هذا القرآن أو بمثل عشر سور فيه ، أو بمثل أقصر سورة منه لكنهم لن يستطيعوا مهما كانت قوتهم ، ومهما كانت خبرتهم ، ومهما كانت العلوم والمعارف التي حصلوها .

وقد تحدى القرآن أهل الأرض قاطبة ، بل كل الإنس والجن على أن يأتوا بقرآن مثل القرآن الذي أنزله الله وحيا على محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام فعجزوا ولم يستطيعوا أن يقفوا أمام هذا التحدي ، قال عز وجل : ﴿ قُلْ لِيُنزِلَ آيَاتُ الْإِنسِ وَالْجِنِّ عَلَيَّ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِيَعْلَمَ ظَاهِرًا ﴾ (١) ثم تحدهم بعشر سور فلم يستطيعوا ﴿ أَمْ يَقُولُونَ أَفَنَزَّلَهُ قُلُوبُنَا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُغْتَرِبِينَ وَأَدْخُوا مِنْ آسَاطِينِنَا دُونَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٢) وتحدهم بسورة واحدة فلم يستطيعوا ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٣) ، وتحدي القرآن لجميع الإنس والجن وثبوت عجزهم أمام هذا التحدي يثبت أنه حجة عليهم يجب عليهم الإيمان به والالتزام بأحكامه والعمل بما فيه عقيدة وشريعة ، أخلاقا وأحكاما .

ولقد عرفنا هذا السند القوي الصادق الذي انتقل إلينا القرآن عن طريقه ، وأخذنا فكرة مختصرة عن النص القرآني وأدركتنا عظمته وصدقه ، ثم رددنا على بعض الشبهات التي أثرت حول هذا الوحي الإلهي ، وقبل هذا وذلك ثبت لدينا

(١) الإسراء / ٨٨ .

(٢) هود / ١٣ .

(٣) البقرة / ٢٣ .

تحريف التوراة والإنجيل واختلاف أصحابهما فيهما^(١)، وحينئذ يصبح القرآن حجة على كل الناس سواء منهم من كان من أهل الكتاب أو لم يكن، ويكون كل الناس مطالبين ومسئولين عما في القرآن من أحكام عقائدية وتشريعية... إلخ.

وإنما قلنا بأن القرآن حجة على كل الناس يسألون عما فيه لعدة أمور هي:

١- أن القرآن الكريم جاء من الله رسالة إلهية إلى الإنسانية كلها، فقد كلف الله رسوله محمدا بتبليغ هذا الوحي، فقال سبحانه:

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾^(٢).

وهذا التبليغ يكون لكل الناس، الأبيض والأسود، الأحمر والأصفر، فقال

سبحانه: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾^(٣).

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾^(٤).

وقوله الفرقان: «كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة»^(٥)

وليس هناك نبي ولا رسول بعد محمد صلى الله عليه وسلم حيث قال سبحانه:

﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾^(٦).

وحيث إن القرآن معجزة محمد صلى الله عليه وسلم الذي هو رسالته لكل الناس، كان هذا

القرآن رسالة موجهة لكل الناس ملزمين به معجزة وملزمين به عملا وتطبيقا.

أما التوراة فكانت كتابا لبني إسرائيل لأن رسالة موسى عليه السلام كانت خاصة ببني

إسرائيل ولم تكن رسالة عامة ولا عالمية، وهذا ما نص عليه القرآن الكريم في قوله

تعالى:

(١) وهذا في كتابينا: «من قضايا التوراة دراسة وتحليل»، «من قضايا الإنجيل دراسة وتحليل».

(٢) المائدة / ٦٧.

(٣) الأعراف / ١٥٨.

(٤) الفرقان / ١.

(٥) الصحيحان.

(٦) الأحزاب / ٤٠.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تَعْبُدُونَ مَا تَدْعُونَ آلِهَةً بَدَعَتِ آبَاؤُكُمْ وَإِيَّائِيَ كَمَا تَدْعُونَ رَبَّكُمْ قَالُوا وَإِنَّا لَفِي سَكْرَةٍ مِمَّا تَدْعُونَا رَبَّنَا وَقَدْ تَجَدَّدْنَا بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَكَانَ صَبْحًا يَوْمَآ خَشِيتُ لِقَابَ رَبِّي إِذْ يَدْعُنَا لِجَهَنَّمَ أَوْ لِقَابِ رَبِّي قَالَ لِقَابُ رَبِّي الَّذِي يُدْعَى عَلَيْهِ يَوْمَئِذٍ هُوَ الْكَلْبُ ﴾ (١)

والتوراة كانت كتابا خاصا ببني إسرائيل فقال سبحانه:

﴿ وَمَا تَنبَأُ مَوْسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ (٢)

ولقد أفرط بنو إسرائيل في تطبيق هذا المعنى حتى إنهم كانوا يمنعون غير اليهودي من الانضمام إليهم والانخراط في دينهم وعبادتهم للإله الذي يعبدونه بنو إسرائيل ، وقد نصت التوراة (٣) على هذا التخصيص فقالت : « لا يدخل عموني ولا مؤابي في جماعة الرب حتى الجيل العاشر ، لا يدخل منهم أحد في جماعة الرب إلى الأبد » (٤)

والإنجيل أيضا كان رسالة خاصة لبني إسرائيل ، فقد قال سبحانه عن عيسى عليه السلام : ﴿ وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَاتٍ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ (٥)

وعيسى عليه السلام قد نص على هذا حيث جاء في الإنجيل « وإذا امرأة كنعانية خارجة من تلك التخوم صرخت إليه قائلة ارحمني يا سيد ابن داود ابنتي مجنونة جدا فلم يجيبها بكلمة فتقدم تلاميذه وطلبوا إليه قائلين اصرفها لأنها تصيح وراءنا فأجاب وقال لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة » (٦)

فأي الكتب يكون حجة ، الذي هو لكل الناس أم الذي كان لجماعة مخصوصة؟ وأي الكتب أنفع ؟ الذي كان لجماعة مخصوصة لها ظروفها وواقعها أم الذي جاء لجميع الخلق متضمنا أحوال وواقع كل الناس ؟

(١) الصف / ٥٠

(٢) الإسراء / ٢

(٣) الاستشهاد بالتوراة أو الإنجيل مع اعتقادنا بتحريفهما إنما هو من باب إلزام الخصم بما يعتقد هو ، وما يراه صحيحا .

(٤) تنبيه : ٢٣ / ٣

(٥) آل عمران / ٤٩

(٦) متى ٢٢ - ٢٤

إنه مما لا شك فيه أن القرآن هو الحجة لأنه جاء لكل الناس ونافع لكل الناس .
 ٢- القرآن واف يطالب الحياة ، فيه العقيدة والشريعة والأداب والأحكام
 الأسرية والحربية . وبه أسس القيادة والعلاقات الدولية ، به ما يصلح الفرد
 والأسرة والمجتمع ؛ لذلك كان وافيا بكل مطالب الحياة سواء منها الفردية أو
 الجماعية.

أما التوراة فإنها تعالج أحكام السياسة الظاهرة العامة حيث تركز على أمور
 الحياة العامة دون نظر إلى أمور الإنسان الخاصة ، كما تركز على أمور الحياة المادية
 دون عناية بحياة الإنسان الروحية ، ففي التوراة « النفس بالنفس والعين بالعين
 والأنف بالأنف والأذن بالأذن » ، وهذه هي أحكام السياسة الظاهرة العامة .

والإنجيل يعالج أحكام السياسة الباطنة الخاصة حيث يركز على الإنسان الفرد ،
 فيهتم بالحياة الروحية من حسن معاملة وأخلاق وآداب دون اهتمام بأمور الحياة
 العامة التي تخص المجتمع ككل ، أو التي لها علاقة بأمور الحياة المادية ، ففي الإنجيل:
 « إذا لطمك أخوك على خدك الأيمن فضع له خدك الأيسر » ، وهذه هي أحكام
 السياسة الباطنة الخاصة .

ولكن القرآن الكريم قد اشتمل على أحكام السياسة العامة والخاصة ، فاما
 اشتماله على السياسة العامة الظاهرة فهذا في قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ فِي الْقَتْلِ لَكُمْ بِالْحَرْبِ وَالْعَبْدُ وَالْأَنْثَى
 بِالْأَنْثَى ﴾ ، ففي هذه الآية إشارة إلى تحقيق السياسة الظاهرة .

وأما اشتماله على السياسة الباطنة الخاصة فهذا في قوله تعالى :

﴿ وَأَنْ تَقُومُوا أَقْرَبَ لِلتَّقْوَى ﴾ ، ففي هذا إشارة إلى تحقيق السياسة الباطنة
 الخاصة^(١).

ولقد وضع القرآن الكريم الأحكام التي تصلح الفرد في داخل ذاته وفي داخل
 المجتمع ، كما وضع القواعد التي تنظم المجتمع وتصلح من جميع شئونه .

(١) الشهرستاني (عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني) الملل والنحل (نشر مكتبة الخانجي
 بالقاهرة) ج ٢ ، ص ٤٤ .

كذلك اهتم القرآن بالإنسان جسدا وروحا ولم يكن كالتوراة التي انصب جل اهتمامها على الماديات ، وليس كالإنجيل الذي ركز على الروحانيات والمعنويات ، فلم يقرر أحكاما ولم يستنبط حلالا ولا حراما ، وإنما كان رموزا وأمثالا ومواعظ .

٣- من هنا كان القرآن الكريم علاجا لمشكلات الإنسانية المعقدة ، فهذه الحروب الطاحنة التي تهلك الحرث والنسل لها في القرآن علاج ، ومشاكل الشباب لها في القرآن علاج ، ومشاكل الاقتصاد لها في القرآن علاج ، ومتاعب الأسرة ومشاكلها لها في القرآن علاج .

ومن أراد التحقق والتأكد فليقرأ القرآن وليستعن بكتب التفسير وحيثما سبى صدق ما يقوله المسلمون وما يعتقدونه « فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » .

٤- والقرآن حجة على أهل الكتاب - ومن باب أولى من لم يكن له كتاب - لأن كلا منهم قد طعن في كتاب الجماعة الأخرى ورآه كتابا محرفا لا فائدة منه .

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتْ أَنْصَارِي عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَانِي لَيْسَتْ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتَّبِعُونَ الْكِتَابَ ﴾^(١) فكلاهما ليس على شيء وذلك باعتراف قدمائهم وشهادة أجباهم وقسمهم .

وكلاهما ليس على شيء إلا إذا أقام التوراة التي نزلت على موسى والإنجيل الذي نزل على عيسى ، ولا يمكن لهم إقامتهما إلا بإقامة القرآن الكريم ؛ لأنه الكتاب الذي اختاره الله مصدقا ومهيمننا على ما سبقه من كتب ، فقد أثبتنا وأقرها وأعلن الناس بها وطالبهم بتطبيقها والعمل بما فيها فقال سبحانه :

﴿ وَكَيْفَ يُحْكِمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّورَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾^(٢) إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّورَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يُحْكَمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ آسَأُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتَخْفُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّكَاسَ وَأَخْسَبُونَ وَلَا تَسْتَفْزِعُوا بِآيَاتِي مَنَّا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا

أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿١١﴾ ، وقال سبحانه :

﴿وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنجِيلِ يَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (١١).

هذا هو رأي الإسلام في التوراة التي نزلت على موسى والإنجيل الذي نزل على عيسى ، ولكن اليهود والنصارى قد طعنوا في كثير من كتبهم ونسبوا إليها التحريف ، والتوراة قد تعددت مع اختلافها فيما بينها (١٢) ، والإنجيل قد تعدد وتضاربت نسخه فيما بينها ، لذلك كان لابد من حكم يبين الحق من الباطل ، هذا الحكم هو القرآن الكريم ، الذي جعله الله حكما في قوله عز وجل :

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَلِيمُ الْقَبِيضُ ﴿١٠﴾ نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ (١١).

وفي قوله سبحانه : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّبًا عَلَيْهِ ﴾ (١٢) ؛ لذلك كان القرآن حجة على جميع الناس بمن فيهم أهل الكتاب .

٥- والقرآن حجة على جميع الناس لأنه أصدق الكتب وأوثقها ، فهو ثقة في سنده ، صادق في متنه ، إنه الكتاب الذي حفظه أهله في صدورهم وكتبوه في السطور ، وهذا وذاك قبل أن يموت الرسول أنزل عليه ، وظلوا محافظين على هذا الكتاب بعد موت رسوله ، فبقي الكتاب هو هو لم يتبدل ولم يتغير ، ليس فيه

(١) المائدة / ٤٣ ، ٤٤ .

(٢) المائدة / ٤٧ ، اعتراف القرآن بالتوراة والإنجيل في هذه الآيات والدعوة إلى العمل بما فيها إنما هو خاص بالتوراة التي نزلت على موسى والإنجيل الذي نزل على عيسى لأنهما وحي إلهي . أما التوراة التي حرقت بعد ذلك والإنجيل المحرف فالقرآن لا يعترف بهما بدليل وصفه لهما بالتحريف وضياح الحق الذي كان فيهما .

(٣) فالسامريون يرون أن توراتهم صحيحة والأخرى محرقة ، واليهود غير السامريين يرون أن توراتهم صحيحة والسامرية هي المحرقة ، وكذلك أهل الإنجيل ، فالذين يرون أن عيسى من طيبة إلهية ينظرون إلى الأناجيل التي تقول بالطبيعة البشرية على أنها محرقة وبالعكس .

(٤) آل عمران : ٣ / ٢ .

(٥) المائدة / ٤٨ .

تحريف ولا تغيير، وكان حقا قول الله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَنَكْتُوبُونَ ﴾^(١).
 لكننا نرى التوراة التي نزلت على موسى واحدة قد أصبحت بعده توراتين مختلفتين عن بعضهما البعض في كثير من الأمور ، ويكفي دلالة على تحريفها أنها وصفت الأنبياء بصفات بذيمة لا تليق بالإنسان المؤمن العادي بله الرسول القدوة والني المعلم .

فهذا رسول قالت التوراة إنه زان ، وهذا رسول زنا بابتة بعد أن شرب الخمر وسكر ، وهذا رسول كذاب ، وآخر قتل أخاه ، والأدهى والأمر أنها وصفت بعض الأنبياء بالكفر والوثنية فهذا رسول عبد العجل ، وهذا نبي قد ارتد وعبد الأصنام ، فهل تصلح تلك التوراة بعد هذا أن تكون قدوة ؟ وأن تكون حجة ؟ وأن تصلح أمة ؟ قال سبحانه وتعالى :

﴿ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ مِمَّا قَالُوا وَعَصَيْنَا وَأَمَّعَ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَذَعَبْنَا لِيَأْسَاسِنَاهُمْ وَطَعْنَا فِي أَلْبَانِهِمْ ﴾^(٢) .

وقال عز وجل : ﴿ فِيمَا تَقْضِيهِمْ لِيُنْفِقَهُمْ لَعْنَتُهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾^(٣) .

والإنجيل الذي نزل على عيسى واحد لكنه أصبح أناجيل كثيرة لم تكتب إلا بعد عيسى ^(٤) بسنين عديدة ، وهي فيما بينها متضاربة متناقضة ، بها الزيادة والنقص، والخطأ والغلط ، وقد عرضت نماذج من هذه التناقضات والتحريفات في البحث الخاص بالأنجيل مما لا يدع مجالا للشك في أنه - أي الإنجيل - أصبح كتابا غير صالح لقيادة أمة وإصلاح شعب وعلاج مشاكل الحياة اليومية .

وكيف يكون هذا الإنجيل الموجود اليوم حجة على الناس وهو يدعو إلى الشرك والكفر ؟ وكيف يكون هذا الإنجيل كتابا إلهيا وهو قد نال من الذات الإلهية وأهان قدسيته حيث دعا إلى التثليث وبشر الناس به وجعل من الإله دمية يستهزئ بها الكهنة والفريسيون ؟ كيف يكون إنجيل اليوم كتابا مقدسا وهو قد أجاز صلب

(١) الحجر / ٩ .

(٢) النساء / ٤٦ .

(٣) المائدة / ١٣ .

الإله وقتله والتمثيل به وهو بين لصين من اللصوص ؟ وكيف يكون الإنجيل اليوم وحيا سماويا وهو قد جعل الإله ضعيفا مهينا لا يستطيع الدفاع عن نفسه ؟ قال سبحانه :

﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَلِّيكَ أَعَدْنَا مِثْقَلَهُمْ فَنسُوا حَقًّا مِمَّا دُكِّرُوا بِهِ فَآخَرْنَا مِنْهُمْ الْعَذَابَ وَالْبَقِصَةَ إِلَى يَوْمِ الْيَقِينَةِ وَمَوَدَّةَ اللَّهِ يَمَّا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٥﴾ يَتَأَهَّلُ الْكِتَابُ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْقُوا عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٦﴾ وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمِمَّا زُوِيَ إِلَهُهُ وَإِلَهُهُ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧﴾

٦- والقرآن حجة على جميع الناس ، لأنه الكتاب الذي دعا إلى الوحدانية الخالصة ونهى عن الشرك بكل صوره وعن الصاحبة والولد ، كما نهى عن التثليث وعموم التعدد ، وهو حين دعا إلى الوحدانية ونهى عن الشرك بكل أنواعه أقام هذا على الأدلة الإقناعية - لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد - فلقد ناقش أهل الكتاب في شركهم ، واستدل على بطلان فكرهم وعقيدتهم حيث قال سبحانه :

﴿ قُلْ يَتَأَهَّلُ الْكِتَابُ نَمَّا إِنْ إِلَى كَلِمَةٍ سَوَّامٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ أَلَّا تَقُولُوا لِلَّهِ مَا لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ مِنْهُمْ مَثَلًا رَبًّا مَن دُونِ اللَّهِ إِنْ قَرَأْتُمْ فَلَوْ لَأَشْهَدُوا بِأَنَّهُمْ كُفَرُوا ﴿١٨﴾ وَلَا يَتَّخِذُ الْكُفْرَ لِمَنْ تَكْفُرُ بِهِ كِبَارَاتٍ اللَّهُ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿١٩﴾ يَتَأَهَّلُ الْكِتَابُ لِمَ تَلْسُونَهُ الْحَقَّ بِالْبُطْلِ وَتَكْفُرُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَمْلِكُونَ ﴿٢٠﴾

كما ونجهم على نسبتهم الابن إلى الله تعالى فقال سبحانه :

(١) المائدة : ١٤ / ١٥ .

(٢) المائدة : ٧٣ .

(٣) آل عمران / ٦٤ .

(٤) آل عمران / ٧٠ ، ٧١ .

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهَوْنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَتَلْنَاهُمْ اللَّهُ أَنْ يُؤَفَّكَوْنَ ﴾^(١).

كما ناقش القرآن الكريم هؤلاء الذين كفروا بالله ورسوله فينبى بالدليل فساد عقيدتهم حيث قال سبحانه :

﴿ وَجَعَلُوا لَهُ شُرَكَاءَ إِلَهًا فَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِمِثْرِ حَيْرٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَدَّلَ عَمَّا يَعْبُودُونَ ﴿٣٠﴾ بِيَعِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صُنْدُجَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣١﴾ ذَلِكَ كَمَا اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَفَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَوَكِيلٌ ﴿٣٢﴾ لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾^(٢).

والقرآن هو الكتاب الوحيد الذي وصف الله بالصفات التي تليق به تعالى ونفسه عنه أن يكون مثل البشر في أشكالهم أو أوصافهم أو أفعالهم ، فهو سبحانه : الواحد، القادر ، العالم ، المرید ، السميع ، البصير ... إلخ وهو سبحانه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾^(٣).

أما في التوراة فالإله يأمر بالسرقة (خروج ٣ : ٢٢) والإله يندم ويتصمخ من المخلوقين (خروج ٣٢ : ١٠ - ١٤ ، عدد ١٣ - ١٨) والإله يقع في الخطأ ويندم على هذا الخطأ الذي كان منه . ويختار ملكا ويندم على اختياره له (خروج ٣٢ : ١٤) ، (صموئيل الأول ١٥ : ١٠) .. إلخ هذه الصور التي لا تليق إلا بإنسان معتوه لا شخصية له .

وإذا قرأنا الإنجيل فإلهه فيه هو الكلمة ، والكلمة صار جسدا وحل بينهم (يوحنا ١ : ١ - ١٤) وهذا هو التشبيه بعينه وتجسيم الإله في الصورة البشرية .

٧- والقرآن حجة على اليهود والنصارى - ومن باب أولى غيرهم - لأنه ذكر

(١) التوبة / ٣٠ .

(٢) الأنعام / ١٠٠ - ١٠٣ .

(٣) الشورى / ١١ .

أمورا كثيرة ، وقضايا متعددة تتعلق بموسى وشريعته ومعجزاته وما كان بينه وبين فرعون ، وكذلك تحدث القرآن عن مريم وعيسى ومعجزاته ودعوته .. إلخ ولم يختلف القرآن في ذكره لهذه الأمور عما هو معروف عند اليهود والنصارى ، فمجيء يوسف إلى مصر ، ودخول يعقوب وأخوة يوسف إلى مصر ومعيشتهم فيها يتفق فيها القرآن مع التوراة (سورة يوسف / سفر التكوين) ، ولما خرج موسى ببني إسرائيل إلى سيناء وعبدوا العجل فوبخهم موسى على ذلك ، اتفق فيه القرآن مع التوراة (سورة طه / سفر الخروج) وتعتت بني إسرائيل وطلبهم ملكا عليهم ، يتفق فيه القرآن مع التوراة^(١) (البقرة / صموئيل الأول) .

وحدث القرآن عن مريم وحملها بعيسى بدون أب وموقف اليهود من عيسى ودعوته ، والمعجزات التي أيد الله بها عيسى ، كل هذا ذكره القرآن ، وكذلك الأناجيل تحدثت عنه .

وحيث ثبت صدق القرآن في هذا وقد وضح لكم الحقائق وجب عليكم أن تؤمنوا به وتصدقوا برسوله وتعملوا بما في كتاب الله ألا وهو (القرآن الكريم) .

والتاريخ يذكر أن أهل الكتاب قد صدقوا عمدا في هذه القضايا وغيرها وإلا كانوا كافرين بتوراتهم وإنجيلهم ؛ لأن وجود هذه القضايا أمر مشترك بين القرآن والكتب الأخرى ، فمقتضى تصديقهم بها لأنها في التوراة والإنجيل يلزم عليه تصديقهم بها كما هي في القرآن الكريم ، وحيث وجب عليهم تصديق القرآن في كل ما يقوله - إذ كيف يصدقونه في بعض الأمور ويكذبونه في البعض الآخر ؟ - ومن هذا الذي يقوله أنه ﴿وَمِمَّنْ يَنْتَهِى﴾^(٢) وإذ وجب عليهم تصديقه لأنه وحي إلهي كان حجة عليهم لأن من صدق بشيء صار حجة عليه ومستولا عنه^(٣) .

(١) التوراة هنا مستعملة بالإطلاق العام عندهم .

(٢) النجم / ٤ .

(٣) قد يقول قائل : وأيضا التوراة والإنجيل جاءت فيهما أمور وقضايا تؤمنون بها أيها المسلمون ، ولم تختلف فيها كتب العهدين عما في القرآن فلم لا تصدقون أنتم بالتوراة والإنجيل ؟ ولم لا تؤمنون بما فيهما من أمور العتيقة وتعملون بما فيهما من أمور الشريعة ؟

ولجيب على هذا : بأن هناك فارقا كبيرا بين القرآن وكتب العهدين القديم والجديد ، فالقرآن كتب في عهد رسول الله وبقي كما هو لم يتغير ، لكن التوراة وإن كانت قد كتبت في عهد موسى إلا أن =

٨- والقرآن حجة على اليهود والنصارى - ومن باب أولى غيرهم - لأنهم راوا من الرسول الذي جاء بهذا القرآن معجزات باهرة لا تظهر على يد مدع كذاب أو فاسق ضال ، كما أن كثيرا من عقلاء أهل الكتاب كانوا يعظمون محمدا ﷺ لما دعا إليه من الوحداية ومكارم الأخلاق ومحاسن الشريعة مما جعلهم يؤمنون بأن محمدا رسول لكن للعرب خاصة ، ولكن تصديقهم بأنه رسول يعني أنه يوحى إليه ويكلمه ربه ، ومن كان هكذا لا يكون كاذبا فحين صدقوا بالرسالة لزمهم تصديقه في كل ما يخبر به ، ومن هذا الذي أخبر به أن هذا القرآن كتاب الله وأنه مصدق ومهيمن على الكتب الأخرى ؛ لذلك كان حجة عليهم يسألون يوم القيامة عما فيه ولم يعملوا به ؟

٩- والقرآن حجة على اليهود والنصارى - ومن باب أولى غيرهم - لأن الطريق الذي استدلل به هؤلاء الناس على ثبوت توراتهم وإنجيلهم هو نفسه الطريق الذي استدللنا به نحن المسلمين على صدق القرآن الكريم ، وحيث إن اليهود والنصارى معترفون بأن الله حين أنزل التوراة والإنجيل قد قرن هذا الإنزال بالمعجزات الدالة على صدق هذين الكتابين فإننا نقول لهم وكذلك القرآن الكريم حين أنزله الله على محمد قرن هذا الإنزال بالمعجزات الدالة على صدق هذا الكتاب الكريم ، وإذا كان طريق التصديق بهذه الكتب كلها واحد فلماذا أن تصدقوا

= التاريخ يذكر أنه عند فتح التابوت الذي وضعت فيه التوراة لم يجدها (سفر الملوك الأول)
وإذن فالتوراة الموجودة اليوم غير التي كانت مع موسى بدليل أنهام توراتين بينهما اختلاف .
وأما الأناجيل فالنصارى معترفون بكتابتها بعد عيسى ﷺ ومن يتصفحها يراها متناقضة يشع منها الكفر والبهتان ، والكتاب الديني لا يدعو إلى الشرك والكفر .
والقرآن واحد في الشرق والغرب ، في الشمال والجنوب ، في عهد النبوة وما بعد عهد النبوة ، هو هو ، لم يتغير ولم يتبدل ، والتوراة والإنجيل ليسا كذلك .
والقرآن في كل ما ذكره من أمور العقائد متفق فيها مع ما جاءت به الرسل والأنبياء ، لكن التوراة والإنجيل المحرفين ابتدعا لله ابنا ووصفناه - أي الله - بصفات البشر ، وهذا لا يتفق مع ما جاءت به الرسل والأنبياء . على أن مجرد اتفاق التوراة والإنجيل مع القرآن في بعض الأخبار لا يعني اتفاقهما معه في جميع الأخبار والأحداث مما يعني أن هناك كذبا فيهما مما يقتضي عدم الأخذ بما جاء فيهما أو بعض ما جاء فيهما .

بالقرآن كصديقكم بالتوراة والإنجيل - وهذا ما يجب أن يكون - وإما أن تكذبوا بالتوراة والإنجيل كتكذيبكم بالقرآن ، وهذا كفر ، لكنكم أقرتم وصدقتم بتوراتكم وإنجيلكم ، وحيث أن يلزمكم التصديق بالقرآن في كل ما قال وكل ما جاء به ، قال الفخر الرازي :

« وافقتمونا أيها اليهود والنصارى على أنه تعالى أنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس ، فإنما عرفتم أن التوراة والإنجيل كتابان إلهيان لأنه تعالى قرن بإنزالهما المعجزة الدالة على الفرق بين قول الحق وقول المبطل ، والمعجز لما حصل به الفرق بين الدعوى الكاذبة كان فرقا لا محالة ، ثم إن الفرقان الذي هو المعجز كما حصل في كون التوراة والإنجيل نازلين من عند الله فكذلك حصل في كون القرآن نازلا من عند الله ، وإذا كان الطريق مشتركا فإما أن يكون الواجب تكذيب الكل على ما قول البراهمة ، أو تصديق الكل على ما هو قول المسلمين ، وأما قبول البعض ورد البعض فذلك جهل وتقليد^(١) .

١٠- والقرآن حجة على أهل الكتاب - ومن باب أولى غيرهم - لأن الرسول ﷺ تحداهم به كما تحدى المشركين ، ودعاهم إلى الإيمان به كما دعا غيرهم ، وأرسل الكتب إلى رؤسائهم وزعمائهم كما دعا بقية الرؤساء والزمعلاء ، فأرسل ﷺ كتبه ورسله إلى كسرى وقبصر والنجاشي والقوقس وسائر ملوك الأطراف يدعوهم إلى الإسلام ، وهو الذي قال :

« لا يسمع بي رجل من هذه الأمة ، يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار »^(٢) ، ومن الإيمان بمحمد الإيمان بالوحي الذي نزل عليه وتصديقه في كل ما قال ، والعمل بما فيه من أحكام وتشريعات .

(١) الفخر الرازي ، مفاتيح الغيب (ط ١) ج ٤ ص ٧٦٩ .

(٢) رواه مسلم في الإيمان : باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس .

الفصل الرابع

قضية اعتراف القرآن بالتوراة والإنجيل

وعلاقة هذا بتحريفهما^(١)

حين نطالع القرآن الكريم نجد فيه بعض الآيات التى فيها اعتراف بالتوراة والإنجيل ، والتصديق بصحتها ، وذلك كقوله تعالى:

﴿ وَكَيْفَ يُحْكِمُ اللَّهُ عَلَىٰ عِبَادِهِ الْقُرْآنَ وَالْحِكْمَ وَالْحُكْمَ وَالْحُكْمَ اللَّهُ لَمْ يَنْزِلْ بِهِ نَسْفًا وَمَا أَوْلَيْكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يُحْكَمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوْنَ الْكَاسَ وَالْأَسْخُونَ وَلَا تَشْرَبُوا بِإِيقَاتِنَا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾^(٢) .

فهذا النص القرآنى يثبت أن التوراة فيها حكم الله ، وفيها هداية ونور ؛ ولذلك يجب أن يحكم بها النبيون ، ومن لم يحكم بالتوراة التى أنزلها الله فهو من الكافرين ، وهذا اعتراف وتصديق بها .

كذلك قوله تعالى:

^(١) فى أثناء الحديث عن القرآن الكريم أشرنا إلى اعتراف القرآن بالتوراة والإنجيل ، كما أشرنا إلى نسبية التحريف إليهما .

ولما كان أهل الكتاب يستندون إلى الآيات التى تعترف بالكتابين فى إثبات صحتها وعدم تحريفهما لزم توضيح هذه القضية وليبيان العلاقة بين النصوص القرآنية التى تعترف بالكتابين التى تصفهما بالتحريف .

وقد أشرت إلى هذه القضية إشارة مقتضبة فى بحثى التوراة والإنجيل ، وإنما أشرت تفصيلاً إلى ما بعد الحديث عن القرآن ؛ لأنه المصدق لهما وحيث إنه حكم بتحريفهما فهذا يكون بعد إثبات صدق القرآن وحيثية على أهل الكتاب والناس أجمعين .

﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آلِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَإِنَّا لَهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٥١﴾ وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾^(١).

فهذه الآية شهدت بأن الإنجيل هدى ونور ، ويجب على اهله أن يقيموه وذلك بما فيه من أحكام ، وهذا اعتراف بالإنجيل وتصديق بصحته .

أيضاً قوله تعالى:

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكُنَّا لَهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا دَخَلَتْهُمْ جَهَنَّمَ أَلَيْسَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ آتَمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أَنزَلَ إِلَيْهِمْ مِن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾^(٢) وقوله ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِالتَّوْرَةِ وَالْإِنجِيلِ وَمَا أَنزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَكِن تَقُولُونَ كِبِيرًا ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا أَنزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم طَبَقِينَ ﴿٥٥﴾ وَكَثُرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾^(٣).

فمجموع هذه الآيات فيه تمجيد للتوراة والإنجيل ودعوة إلى التمسك بهما والحكم بما فيهما ، وهذا اعتراف صريح وتصديق من القرآن بصحتهما .

في الجانب الآخر نرى آيات أخرى تصف التوراة والإنجيل بالتحريف ، وذلك كقوله تعالى :

﴿ مِن الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَنشَأَ بَعْضُهُمْ أَسْمَاءً بَدَلًا ﴿٦٣﴾ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَنشَأَ بَعْضُهُمْ أَسْمَاءً بَدَلًا ﴿٦٤﴾ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَنشَأَ بَعْضُهُمْ أَسْمَاءً بَدَلًا ﴿٦٥﴾ ﴾^(٤).

ففي هذه الآية ثبوت وقوع التحريف ولى الألسن ، والظعن فى الدين ، وهذا

(١) المائدة / ٤٦ / ٤٧

(٢) المائدة / ٦٥ / ٦٦

(٣) المائدة / ٦٨

(٤) النساء / ٤٦

ينزل من قدر التوراة ويحط من قدسيته .

كذلك جاء في القرآن قوله تعالى: ﴿ فِيمَا نَقُصُّهُمْ نَيْشَقُهُمْ لَعْنَتُهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهَا وَتَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا نَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَافِيَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١٣) وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَدَقْنَا أَخَذْنَا مِنْهُمُ آخِذًا مِمَّا نَشَاءُ فَتَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَعْرَبْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنِيبُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ ﴿١١﴾

فهنا وصف الله بني إسرائيل بالتحريف ونسيان آيات الله وإخفائها ، وهذا طعن في التوراة والإنجيل .

أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَكَّطُوا لِلْكَذِبِ سَكَّطُوا لِقَوْمِهِمْ الْآخِرِينَ لَمْ يَأْتُواكُمُ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ ﴾ ﴿١٦﴾

وقوله تعالى: ﴿ أَنْظَلْنَاهُمْ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَسْمَعُونَ ﴾ ﴿١٧﴾ ﴿١٢﴾

فهذه النصوص كلها تثبت تحريف التوراة والإنجيل وضياع كثير من آياتهما إما بالتناسي أو الإخفاء أو لى الألسن بالكلام حتى يصير المعنى عرفاً في أذن السامع . فهل هناك تعارض بين مجموعة النصوص الأولى ومجموعة النصوص الثانية ؟ أم

(١) المائدة / ١٣ - ١٥

(٢) المائدة / ٤١

(٣) البقرة / ٧٥

أن الاعتراف بهما دليل على صحتها وإبرائهما من تهمة التحريف ، ويكون
لكلمة التحريف معنى آخر ؟ أم أن الأمر لا هذا ولا ذلك ؟

هذه القضية أثارها أحد النصارى اللبنانيين^(١) فى عصرنا الحاضر ، حيث
عرضها على القراء واستتج منها ما يخدم غرضه وهدفه من عرضها ، لكن
الاستتاج الذى وصل إليه خاطئ ؛ لأنه بنى على فهم خاطئ لآيات القرآن
الكريم .

لقد استند هذا النصرانى إلى الآيات الأولى التى تعترف بصحة التوراة والإنجيل
قبل التبديل فجعل الاعتراف بصحتها مرتبطا بهذا الوقت وهذه الظروف ، جعله
منسجبا عليهما بعد موسى وبعد عيسى دون تفريق بين ما كان فى عهد موسى
وعيسى من محافظة ومدارسة للكتابين ، وما كان بعدهما من إهمال وحذف
وإضافة فى هذين الكتابين .

ثم عمد إلى الآيات التى تقول بالتحريف فصرف ألفاظها عن حقيقتها ، مبينا أن
المقصود بالتحريف الوارد فى الآيات القرآنية هو تحويل وتأويل اليهود والنصارى
آيات التوراة والإنجيل بغير المعنى والمقصد الصحيح ، فالتحريف هو تفسير الآيات
بمعنى غير المعنى الصحيح ، وليس المقصود بذلك التحريف اللفظى الذى يدعيه
المسلمون بوضع حرف مكان حرف أو كلمة مكان كلمة ؛ لأن القرآن نفسه قد نفى
هذا التحريف حيث جاء فيه ﴿ وَلَا يُبَدِّلُ لِكَلِمَاتِهِ أَلْفًا ﴾^(٢) ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا
وَعَدْلًا لَا يُبَدِّلُ لِكَلِمَاتِهِ ﴾^(٣) ﴿ وَأَنْتَلِ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ حَتَّىٰ تَكُونَ لِرَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ
لِكَلِمَاتِهِ ﴾^(٤) .

(١) لقد عرض الأستاذ محمد عزة دروزة هذه الشبهة ونسبها إلى صاحبها ثم قام بالرد عليها وذلك فى
كتابه ((القرآن والمبشرون)) (ط ٣ سنة ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م) ص ١٦ وما بعدها .

(٢) الأنعام / ٣٤

(٣) الأنعام / ١١٥

(٤) الكهف / ٢٧

وقد أجاب الأستاذ محمد عزة دروزة على ذلك ^(١) بعدة إجابات تختصرها فيما يلي:

١- ﴿وَلَا يُبَدِّلُ كَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ يقصد بها حكم الله وقضاؤه لا كلمات الله التي نزلت في التوراة والإنجيل .

٢- التبديل غير مستحل ؛ لأن البشر يخطئون في كتاباتهم وينسون ، وكذلك الذين كتبوا التوراة والإنجيل هم أيضا ينطبق عليهم هذا الحكم البشرى ، فلعلهم أخطأوا في كتاباتهم بقصد أو بدون قصد ، ولعلهم نسوا - أو تناسوا - شيئا من هذه الكلمات ^(٢) .

٣- ضرورة وقوع الخطأ في الكتابة أو القراءة ينفي الاحتمال الذي يدعيه الخورى - وهذا هو الذى أثار القضية - من أن المقصود بالتحريف المذكور فى القرآن صرف الكلام عن حقيقة مدلوله وتأويله بغير القصد .

٤- ومع التسليم بأن القرآن اعترف بصحة التوراة التى نزلت على موسى والإنجيل الذى نزل على عيسى ، فهذا لا يمنع من أن يكون اليهود وقت نسخهم للتوراة من أصل ، أو وقت قراءتها قد أخطأوا فى كلمات كثيرة أو ينسونها أو يخفونها أو يكتُمونها .

وأضيف لى هذا الذى اختصرته من كتاب « القرآن والمبشرون » :

أن القرآن حين نص على صحة التوراة والإنجيل فترك التوراة الصحيحة هى التى نزلت على موسى عليه السلام ، وذلك الإنجيل الصحيح هو الذى نزل على عيسى عليه السلام فلقد كانت هناك فصول باقية فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم كما كانت هناك بعض التشريعات التى تتفق مع شريعة الإسلام .

وحين نص القرآن على أن بنى إسرائيل حرفوا التوراة والإنجيل واخفوا وكتُموا

(١) محمد عزة دروزة ، القرآن والمبشرون ص ٤٦ وما بعدها .

(٢) لا يقال: إن هذا الحكم ينطبق أيضا على القرآن ، لا يقال هذا لأن القرآن كتب فى عهد الرسول وكان يحفظه والصحابة من بعده كانوا يحفظونه .

منهما فتلك توراة أخرى كتبها اليهود بأيديهم فأسقطوا وأخفوا ، وبدلوا وغيروا ، وذلك إنجيل آخر كتبه النصارى بأيديهم فأسقطوا وأخفوا وبدلوا وغيروا .

فالقرآن حين اعترف بصحة التوراة والإنجيل لم يقصد بهما التوراة المحرفة ولا الإنجيل المبدل ، بدليل أنه وصفهما فى الآيات الثانية التى ذكرناها بالتحريف وأن أهلها كانوا يلوون ألسنتهم فى القراءة قصد التحريف ، وكانوا يخفون الآيات حيناً وينسونها حيناً آخر ، ولا تجتمع الصحة والتحريف على كتاب واحد فى وقت واحد ، وإنما العقل والمنطق يقولان بأن الصحة صفة لكتاب وهذا هو الذى نزل على موسى والذى نزل على عيسى ، والتبديل والتحريف صفة لكتاب آخر وهو التوراة التى كتبها الربانيون والأحبار ، والإنجيل الذى ألفه الرهبان والقسس .

وإذا أجاز الخورى لنفسه الاستدلال بآيات القرآن التى تدل على صحة هذين الكتابين فلم لا يجوز لنفسه الاستدلال بالآيات الأخرى التى تقول بفساد هذين الكتابين ؟

بل الصحيح هو الاستشهاد بالآيات التى تدل على فساد التوراة والإنجيل ، دون الاستشهاد بالآيات التى تدل على صحتها ؛ وذلك لأن الفساد أمر يكون طارئاً على شيء موجود وصحيح ، فالشيء يكون صحيحاً أولاً ثم يفسد ثانياً بسبب بعض العوامل والظروف ، وعلى ذلك فحين قال القرآن بصحة هذين الكتابين فهذا باعتبار المرحلة الأولى التى كان المؤمنون من بنى إسرائيل يحافظون على التوراة والإنجيل ، تلك التوراة التى نزلت على موسى ، والإنجيل الذى نزل على عيسى ، وحين قال القرآن بتحريفهما فذلك باعتبار المرحلة التالية التى تأثرت بالأغراض الشخصية والعوامل السياسية ، وظروف التشتت والقهر الذى عاش فيه بنو إسرائيل ، مما كان سبباً مهماً فى تحريف هذين الكتابين .

أما صرف لفظ التحريف - الوارد فى القرآن وصفاً للتوراة والإنجيل - إلى معنى تحويل وتأويل ، وأن المقصود بهذا - حسب رأى الخورى - التأويل بغير المعنى والمقصد الصحيح ، فهذا صرف غير جائز لا تؤيده اللغة ، ولا يقول به

جمهور المفسرين للقرآن الكريم ، فاللغة تقول: « وتحريف الكلام عن مواضعه تغييره... ويقال: انحرف عنه وتحرف واحرورف أى مال وعدل » ، فالتحريف فى اللغة تغيير الكلام عن مكانه والميل والعدول عن الكلمة الأصل إلى كلمة أخرى غيرها .

وجهور المفسرين على أن التحريف هو التبديل والتغيير فى كلمات التوراة والإنجيل ، وابن كثير حين قال فى قول الله: « يعرفون الكلم من بعد مواضعه » أى يتأولونه على غير تأويله ، أتبع هذا بقوله: « ويبدلونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون » ، فعاد إلى تفسير التحريف بالتبديل ، كما قال فى تفسير سورة الجمعة عن اليهود: « حملهم الكتاب الذى أوتوه حفظوه لفظاً ولم يفهموه ولا عملوا بمقتضاه بل أولوه وحرفوه وبدلوه^(١) » .

وإذن فما قاله الخورى تعسف وحمل للألفاظ على غير معناها دون قرينة تساعده على هذا أو لغة تناصره فى دعواه .

وأيا ما كان الأمر ، وسواء أكان المقصود بالتحريف تبديل كلمة مكان كلمة أو تبديل معنى مكان معنى آخر فهذا كله تحريف ، الأول تحريف فى الألفاظ ، والثانى تحريف فى المعنى ، وكلاهما قام به بنو إسرائيل (يهود ونصارى) كما ذكرنا فى بحثى التوراة والإنجيل .

على أن هذه الآيات التى وصفت التوراة والإنجيل بالتحريف وردت بها بعض الألفاظ التى تخصص كلمة التحريف بمعنى التغيير والتبديل فى الكلمات ذاتها ، فكلمة « عن مواضعه » فى قول الله: « يعرفون الكلم عن مواضعه » تجعل التحريف خاصا بتبديل الكلام وتغييره ، إذ لم يرد أن الموضع هو المعنى حتى يقال يعرفون الكلام عن معناه أو يقال يؤولون الكلام عن مواضعه ، كذلك لفظ « نسيان » « يخفون » ولفظ الاختلاف فى قول الله ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾

(١) ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، ج ٤ ، ص ٣٦٤ .

فَاخْتَلَفَ فِيهِ ﴿١١﴾ ، كل هذه الألفاظ لا تجعل للتحريف معنى إلا التبديل والتغيير .
ثم إن القرآن الذى قال بأن التوراة هدى ونور ، والإنجيل هدى ونور ، هو نفسه
الذى أمر بنى إسرائيل باتباع نبي الله محمدا مستشهدا على هذا بوجود صفته لديهم
فى توراتهم . والإنجيلهم حيث قال : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي
يَجِدُونَهُ مَكْنُوزًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ
الْمُنْكَرِ وَيُحِيلُ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ
وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَإِذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي
أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ ﴿١٢﴾ .

فهل التزم بنو إسرائيل بما فى توراتهم والإنجيلهم من الإيمان بمحمد ؟ فليأتونا
بالتوراة التى نزلت على موسى ، والإنجيل الذى أنزل على عيسى ونحن نسلم لهم
بصحتها ونؤمن بصدقهما ؛ لأنهما حيثما سيأخذان بأيدي بنى إسرائيل إلى الإيمان
بمحمد وبكتاب محمد ، القرآن الكريم .

ولقد كان هذا القرآن يتلى أمام اليهود والنصارى الذين كانوا بالمدينة وسمعوا
من القرآن آيات تصف التوراة والإنجيل بالتحريف ، وآيات أخرى تكفر الذين
قالوا عزيز ابن الله ، والمسيح ابن الله ، ولم يثبت أن اليهود أو النصارى فى ذلك
الوقت اعترضوا أو كذبوا القرآن فيما ادعاه ، أو على الأقل ناقشوا محمدا فى
دعوى التحريف هذه ، أو أتوا بما يثبت صحة هذين الكتابين أمام ادعاء المسلمين
تحريفهما ولم يكن اليهود والنصارى من الجاهل بحيث يعميهم هذا عن معرفة الآيات
التي تقول بالتحريف فى كل من التوراة والإنجيل دون معرفتهم بالآيات التي
تعترف بهما ، ولم يكن اليهود والنصارى فى ذلك الوقت من الجاهل بحيث لم
يدركوا أن التحريف هو التحويل والتأويل بغير المعنى والمقصد الصحيح كما قال

(١) هود / ١١٠

(٢) الأعراف / ١٥٧ .

الخورى .

أما استدلال الخورى بالآية ٣٤ من سورة الأنعام: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولًا مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كَذَّبُوا وَآوَنُوا حَتَّىٰ أَنْهَمْنَا نَصْرًا وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ .

فالمقصود بهذا كلمات مخصوصة هي قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾^(١) .

وكذلك كل آية فيها وعد من الله بنصر رسله والمؤمنين ؛ وذلك لأن آية الأنعام من أولها إلى آخرها تتحدث عن نصر الله تعالى لرسله ، وحيثذ يكون المقصود بقول الله: ﴿وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِ﴾ هو تلك الكلمات التى جاءت خاصة بنصر الله لرسله وللمؤمنين ؛ ولذلك قال ابن عباس تفسيراً لقول الله: ﴿وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ أى لمواعيد الله^(٢) ، والمواعيد هى الوعد .

وقوله تعالى فى سورة الأنعام (١١٥)

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبْدَلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ .

جاء قبله قوله تعالى: ﴿أَفَصَبَّرَ اللَّهُ ابْنَ حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونُونَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ .
وقد قال المفسرون فى الآيتين أنه لا مبدل لحكم الله ولا راد لقضائه حيث حكم وقضى بنزول كتاب بعد التوراة والإنجيل يكون حكما بين محمد والمشركين ؛ وذلك لأنهم طلبوا أن يجعل محمد بينه وبينهم حكما من أحبار اليهود والنصارى ليحكم لهم هل فى كتبهم أن محمدا رسول أم لا ؟ فبينت الآيات لهم أن الحكم هو القرآن وهذا ما قضى الله به ولا مبدل لكلماته ، أى لا مبدل لحكمه وقضائه .

(١) غافر / ٥١

(٢) الشيخ محمد الصابونى ، صفوة التفسير ، جـ ٣ ، ص ٦٦ .

ونحن إذا نظرنا إلى الآيات التي نزلت في خلاف بين رسول الله ﷺ والمشركين ، وأن الله أمره أن يقول لهم لا حكم إلا للكتاب المفصل الذي نزل عليه إذا نظرنا إلى هذا كانت هذه الكلمات التي لا تبدل أمرا خاصا بالقرآن الكريم ، والمعنى : لا حكم إلا للكتاب المفصل الذي نزل على محمد ، والذين أتاهم الله الكتاب قبل محمد يعلمون أنه - أي هذا الكتاب - منزل بالحق وأن كلماته قد تمت فلا تبدل ولا تتغير .

أما آية الكهف (٢٧) ﴿ وَأَنْزَلْنَا مَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنْ كِتَابٍ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ﴾ فهي نص في عدم قدرة أحد على تغيير كلمات الله التي أوحاها الله إلى محمد ﷺ وقال له بشأنها ﴿ وَأَنْزَلْنَا مَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنْ كِتَابٍ رَبِّكَ ﴾ ، فالحديث عن الوحي الذي نزل من الله على محمد وهو القرآن الكريم ، وهذه شهادة خاصة للقرآن وليست شهادة بعدم تبديل التوراة أو الإنجيل ؛ لأنهما في ذلك الوقت الذي نزلت فيه آية الكهف كان قد دخلهما التحريف بالفعل ، فالخطاب لمحمد يطالبه فيه ربه بتلاوة ما نزل عليه لأن هذا الذي نزل عليه حق لا يتبدل ولا يتغير ، وفي تفسير هذه الآية يقول ابن كثير: «يقول الله تعالى أمرا رسوله ﷺ بتلاوة كتابه العزيز وإبلاغه إلى الناس ﴿ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ﴾ ، أي لا مغير لها ولا محرف ولا مزيل .

وبذلك بطل رأى الخورى وفسدت دعواه بأن لا تحريف في التوراة والإنجيل وأن القرآن قد اعترف بهذا ، إذ تبين أن التحريف ثابت لا محالة ، والقرآن يثبت التحريف فيهما ولا ينفيه .

لكن تأتي هنا شبهة أخرى مرتبة على هذه النتيجة التي وصلنا إليها - وهي أن التوراة والإنجيل كتابان محرفان - هذه الشبهة تقول: إذا كانت التوراة والإنجيل محرفين فلم تستشهدون بهما؟ وهل يصح الاستشهاد بالتحريف بالمبدل ؟

وهذه الشبهة يشهدها فريقان متطرفان:

١- فريق يقول: حيث ثبت تحريف التوراة والإنجيل فلا يجوز حيثئذ الاستشهاد

بهما أو الاستناد إليهما في أمر من الأمور ، فالقرآن الكريم بين أيدينا وفيه الغناء عن أى كتاب آخر .

ويرد على هذا الفريق بما فعله علماء المسلمين في هذا الموقف ، فابن تيمية وابن القيم وابن حزم والشيخ محمد رشيد رضا والشيخ محمد أبو زهرة والشيخ رحمة الله الهندي وغيرهم كثير كانوا يستشهدون بنصوص من التوراة وذلك من أجل إلزام الخصم بما في كتابه ويعتقد هو صحته .

والرسول ﷺ قد أعطانا القاعدة الصحيحة لذلك ، فقد روى البخارى عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «بلغوا عنى ولو آية وحدثوا عن نبي إسرائيل ولا حرج»^(١) ، وهذا كلام مطلق قد قيد بمحدث آخر رواه البخارى عن أبى هريرة قال : كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام فقال رسول الله ﷺ : « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلها وإلهم واحد ونحن له مسلمون » . والقاعدة المستتجة من الأحاديث - وكما قال العلماء - ما تبين لنا صدقه أخذنا به ، وما تبين لنا كذبه أعرضنا عنه ، وما لم يتبين لنا وجه الحق فيه فلم نعرف إن كان صادقا أم كاذبا قلنا فيه آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلها وإلهم واحد .

٢- فريق آخر يقول : حيث يستشهدون بالتوراة والإنجيل فهذا دليل صدقهما وشاهد على صحتها ، ويستند هذا الفريق في دعواه على بعض الآيات التى فيها دلالة على صحة أحكامها وتشريعاتها وذلك كقوله تعالى :

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَسُمُّوا عَلَىٰ مَن مَّوَّعًا حَقًّا تُؤْمِنُوا بِالْتَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِن رَّبِّكُمْ ﴾^(١) ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾^(٢) ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ

(١) البخارى : ٦ : ٣٦١ .

(٢) المائدة / ٦٨ .

(٣) آل عمران / ٩٣ .

فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يُحْكَمُ بِهَا الْقَبُورُ الَّذِينَ آمَنُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّابِثِينَ وَالْأَحْبَارَ
بِمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ﴿١١﴾ .

﴿ وَكَيْفَ أَهْلَ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ
الْقَابِلُونَ ﴾ ﴿١٢﴾ .

﴿ وَكُلُّكُمْ لَعَنَةُ التَّوْرَةِ وَالْإِنجِيلِ وَمَا أَنْزَلَ إِلَهُكُمْ مِنْ دُونِهِمْ لَأَحْكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمَنْ تَحْتِ
أَرْجُلِهِمْ ﴾ ﴿١٣﴾ ويقولون أيضا : ثبت أن نبيكم قد استشهد بالتوراة على اليهود في
قصة الرجم للزاني المحسن .

ويورد على هذا الفريق بأن الاستدلال بالتوراة والإنجيل له ناحيتان :

أ- إن كان المقصود بالاستشهاد بهما مجرد إلزام الخصم فهذا لا يلزم فيه تصديق
المستشهد بصحة ما يستشهد به ، وإنما يكفي فقط أن يكون الخصم معتقدا بصحة
هذا النص من التوراة أو الإنجيل حيث هو من أهلها .

ب- إن كان القصد لإثبات وتقرير حقيقة دينية جاء بها القرآن وجاءت بها
الرسول فحيث لا بد من تصديق الطرفين بالدليل الذي يستشهد به من التوراة أو من
الإنجيل ، والمسلم في هذا الجانب لا يستشهد بأى من التوراة والإنجيل إلا إذا كان
ذلك متفقا مع القرآن الكريم ، ومن هذا النوع تلك الآيات التي أوردها هذا
الفريق الثاني ، إذ لا بد في الاستشهاد بها من اتفاق الطرفين على المقصود منهما ،
وحيث إن لأهل الكتاب مقصدا لا تتفق معهم فيه بطل الاستشهاد بها .

فالآية الأولى التي استشهد بها هذا الفريق تعني أن اليهود والنصارى ليسوا على
شيء من الدين إلا إذا أقاموا هذين الكتابين ، وآمنوا بما فيهما وعملوا بأحكامهما ،

(١) المائدة / ٤٤ .

(٢) المائدة / ٤٧ .

(٣) المائدة / ٦٦ .

وعما فيهما الإيمان بمحمد ﷺ واتباعه والإقتداء بشريعته ، كذلك عليهم الإيمان بما أنزل إليهم ، وماذا يكون هذا الذي أنزل إليهم غير القرآن الكريم ؟ فقد قال مجاهد فى قوله تعالى : « وما أنزل إليكم من ربكم »^(١) يعنى القرآن العظيم ، ونسب هذا أيضا إلى ابن عباس^(٢) ، ومن المعلوم بدهاء أن الله حين طالب اليهود والنصارى بإقامة التوراة والإنجيل لم يطالبهم بإقامة توراة تقول: إن عزيزا ابن الله ، ولا بتوراة تقول : إن موسى قتل أخاه هارون ، ولا بتوراة تقول بأن سليمان عبد آلهة متعددة ولم يكن قلبه مع الرب إلهه^(٣) .

كذلك لم يطالب الله بإقامة إنجيل يقول بأن الله ثالث ثلاثة ، وأن الرب صلب وضربه الجندى الكافر فى جنبه فخرجت الدماء من جسم الرب ، وليس بمعقول أن يطالب الله بإقامة إنجيل يحسم الإله ويصفه بصفات البشر .

أما قوله تعالى ﴿ قُلْ قَاتُوا بِالَّتُورَةِ قَاتُلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

فالقصد منها أن يقرءوا التوراة ويستخرجوا منها أن الأطعمة التى حرمها إسرائيل على نفسه كانت محرمة على نوح وعلى إبراهيم إن كانوا صادقين فى دعواهم أنها كانت محرمة قبل يعقوب ، فلما طالبهم الرسول بهذا لم يجسروا على قراءة التوراة لأنه ليس بها ذلك التحريم .

وإذن فحين طالبهم القرآن بقراءة التوراة لم يطالبهم بشيء موجود فيها وإنما بشيء غير موجود فيها ، وهذا لا يلزم عليه ثبوت صحة هذه التوراة .

على أننا نحن المسلمين حين قلنا: إن التوراة محرفة ومبدلة فإن هذا لا يلزم أن ينطبق على كل جملة وكلمة وحرف ، فقد يكون التحريف فيها فى موضع دون موضع ، وعليه فإنه تعالى حين طالبهم بإقامة التوراة والإنجيل أو بقرآتهما فإن هذا

(١) ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ج٢ ص ٨٠ .

(٢) الشيخ محمد الصابوني ، صفوة التفاسير ، ج٣ ، ص ٣٥ .

(٣) سفر الملوك الثالث ، الفصل (١١) : ١ - ١٠ .

ينطبق على الصحيح منهما الذى لم يتبدل ولم يتغير .

وقل مثل هذا فى بقية الآيات التى استشهد بها الفريق الثانى ، فالتوراة والإنجيل هدى ونور قبل تحريفهما وتبديلهما ، أو هما هداية ونور فيما تبقى منهما بدون تحريف وتبديل .

وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه على عيسى عليه السلام من وحدانية الله والإيمان بمحمد واتباع شريعته ، وحين طالب الله بنى إسرائيل بالحكم بما فى الإنجيل فإتاما طالبهم بما كان فيه من حق قبل التحريف ، أو طالبهم بإقامة ما تبقى فيه من حكم أنزله الله ولم يبدلوه ولم يغيروه .

أما الاستناد على استشهاد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتوراة فى رجم الزانى المحصن وضرب ابن سلام يد ابن سوريا حين وضع يده على آية الرجم فهذا حق ولكن لا يلزم من وجود هذا الحكم واستشهاد الرسول به على أهل التوراة أن تكون التوراة كلها صحيحة ، فلقد أبقى الله بعضا من التوراة وبعضا من الإنجيل خزيا لبنى إسرائيل وإظهارا لكذبهم وليكون ذلك حجة عليهم .

وإذن فاستشهاد الخورى بآيات القرآن التى تقول بأن التوراة هدى ونور ، والإنجيل هدى ونور ، وأنه على بنى إسرائيل أن يحكموا بهما ويعملوا بتعاليمهما ، استشهاد الخورى بهذا على عدم دخول التحريف إلى كل من التوراة والإنجيل ، استشهاد باطل ، والتوراة والإنجيل كانتا محرفتين منذ ما قبل عهد الرسول وذلك باعتراف مفسرى العهدين القديم والجديد .

الخاتمة

هذه صفحات سطررتها في دراسة القرآن الكريم سندنا ومتنا ، وقد أظهرت هذا السند الذي لا يدانيه سند لأي كتاب آخر فإذا بهذا السند قد تحققت له كل عوامل الصدق والاستيثاق ، فقد كتب القرآن في عهد رسول الله ، وانتقل هذا الكتاب إلى المسلمين من بعده ، وجمع على يد أبي بكر وعثمان بطريق التواتر ويشهادة الشهود، الحفظة والكتابة ، وظل هذا الكتاب ينتقل من جيل إلى جيل فلم يزد فيه ولم ينقص منه ، ولم يبدل فيه حرف ولا كلمة .

ثم انتقلت إلى القرآن الكريم نصا ومتنا فبينت ما في هذا الكتاب من عظمة لغوية وتشريعية ، وما يمتاز به عن الكتب السابقة من عموم وشمول ونفع للبشرية كلها وعلاج لمشاكلها .. وحتى لا تكون هناك شائبة تشوب هذا الكتاب عرجت على شبهات أثارها كارهون للإسلام حاقدون عليه فوضحت الحق فيها وبينت أن هذه الشبه أوهى من أن تسيء إلى هذا الوحي الإلهي المحفوظ من المولى عز وجل .



المراجع

- ١- ابن تيمية - الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح .
- ٢- ابن الجوزى - الوفا بأحوال المصطفى .
- ٣- ابن حزم - الفصل فى الملل والأهواء والنحل .
- ٤- ابن القيم - إغائة اللهفان من مصايد الشيطان .
- ٥- ابن كثير - تفسير القرآن العظيم .
- ٦- ابن كثير - السيرة النبوية .
- ٧- جلال الدين السيوطى ، جلال الدين المحلى - تفسير الجلالين .
- ٨- الفخر الرازى - مفاتيح الغيب .
- ٩- رحمة الله الهندى - إظهار الحق .
- ١٠- الزمخشري - الكشاف عن حقائق التنزيل .
- ١١- سعيد ابن البطريق - التاريخ المجموع على التحقيق .
- ١٢- السيوطى - الإتيان فى علوم القرآن .
- ١٣- الشهرستانى - الملل والنحل .
- ١٤- الطبرى - جامع البيان فى تفسير القرآن .
- ١٥- القاضى على بن أبى العز- شرح العقيدة الطحاوية .
- ١٦- د. محمد رمضان البوهى - كبرى اليقينيات الكونية .
- ١٧- الشيخ محمد الصابونى - صفوة التفاسير .

- ١٨- د. محمد الطيب النجار - سيرة الرسول في ضوء الكتاب والسنة .
 ١٩- د. محمد عبد العظيم الزرقاني - مناهل العرفان في علوم القرآن .
 ٢٠- د. محمد عبد الله دراز - النبأ العظيم .
 ٢١- محمد عزة دروزة - القرآن والمبشرون .
 ٢٢- موريس بوكاي - القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم .

* * *

النجدي

الطبع والإخراج والتصوير

ت: ٥٨٨٥٠٣١/٥١٠

١٢/٢٦١٤٢٤٩

المحتويات

الصفحة	الموضوع
٣	مقدمة الطبعة الثانية.....
٧	تمهيد.....
٧	إثبات النبوة لمحمد بن عبد الله.....
الباب الأول	
القرآن سند ومتنا	
١٣	
١٥	الفصل الأول: القرآن كلام الله وليس كلام عمدة.....
٣٦	الفصل الثاني: نزول القرآن على رسول الله.....
٤٧	الفصل الثالث: المسلمون والقرآن.....
الباب الثاني	
القرآن نصاً ومتناً	
٥٧	
٥٩	الفصل الأول: صورة توضيحية عن النصوص القرآنية.....
٦٦	الفصل الثاني: شبهات وردود.....
٧٤	الفصل الثالث: القرآن حجة على جميع الناس.....
	الفصل الرابع: قضية اعتراف القرآن بالتوراة والإنجيل وعلاقة هذا بتحريفهما.....
٨٦	
١٠٠	الخاتمة.....
١٠١	المراجع.....
١٠٢	المحتويات.....